جدّتي لا تُفلتي قلبي

أو

الهروب من المعبد

رواية

هاني السالمي

[1]

[الجسد يروي] الآن أنا أركض وخلفي المعبد، وعائلتي الكبيرة تركض خلفي، أنا سعد مردخاي، أو موشي النابلسي. القصة طويلة وليست ببعيدة عما يحدث معي بشكل خاص.

كنت أعيش في عائلة مردخاي الإسرائيلية حياة سعيدة، كان أبي مسؤولاً لمصنع ملابس الجيش من بناطيل وسترات وكل ما يلزم من ملابس وتجهيزات لجنود داخل معسكرات التدريب، كانت أمي مهتمة بالألوان وخاصة اللون الأخضر، وعشقها لهذه اللون يجعلها تلون كل شيء تستخدمه بهذا اللون، جدران البيت، ملابسها الخاصة، زجاجات العطر خضراء، حتى قوارير الماء في الثلاجة، وحبل الغسيل معظم المنشور عليه باللون الأخضر.. فقد كانت تشير على أبي ببعض التصاميم وألوان البدل العسكرية.

هي من أشارت على أبي استخدام تدرج اللون الأخضر في أزياء وبدلات الجيش، لتميز الرتب العسكرية في المجموعة الواحدة، (حيث يمكن أن تميز الرتب العالية باللون الغامق، والجندي باللون الفاتح).

أمي تنحدر من عائلة يهودية عاشت في كندا، وجاءت إلى أمريكا بهدف التعليم والحفاظ على صحتها، فقد أصيبت وهي صغيرة بداء الربو في الصدر فأشار الأطباء عليها أن تعيش في أماكن أقل برودة، وفي كندا تستمر البرودة طوال العام.

تعرفت على أبي في إحدى الجامعات، كانت أمي بيضاء بعيون زرقاء، لا تتحكم في مشاعرها وخاصة الحب، أبي قريب لشكل الإيطالي بسمرة الوجه والأنف الرفيع.

كلاهما لم ينتهيا من الدراسة الجامعية، فقد سافرا إلى تل أبيب للخدمة الإجبارية في الجيش، أبي في بداية الأمر لم يشارك في إطلاق أي طلقة، فقد طلب أن يعمل في معسكرات التدريب في قسم الملابس والتنظيف والتسليح، أما

أمي أيضا عملت في طلاء الجدران داخل المعسكرات وتركيب الأبواب المضادة للرصاص وتنظيف سيارات الجيش، وكانت تقول أنظف بقايا الجنود ولا أشاركهم في المعارك.

في يوم الإجازة شعرت أمي بألم في بطنها، فذهبت إلى الطبيب المتواجد في معسكر التدريب وبعد الفحص أخبرها أنها حامل.

علم أبي بالخبر، وبعد فترة الحمل ولدتُ أنا في معسكر التدريب وعلى حديث أمي قد أقيمت حفلة شواء كبيرة حين ولدت، وأطلق عليّ اسم موشي، وكل الجنود رقصوا وأكلوا طعام وفواكه طوال الليل احتفالاً بي.

مكثنا في تل أبيب لمدة تسع سنوات وقد كانت لغتنا اللغة العبرية واللغة الإنجليزية، وكان الجدّ والجدّة يزورانا في البيت، ويجلبان معهما الهدايا من أمريكا.

وقد زرنا مع العائلة المعابد وصلينا فيها ولبسنا الملابس الخاصة ومارسنا كل الطقوس الدينية، وكنا نقف كثيرا عند

حائط المبكى، لكن أبي وأمي لم يهتما كثيرا بزيارة المعبد إلا إذا حضر الجدّ والجدّة.

لا أعلم ما يفعله جدّي وجدّتي في أمريكا، سوى الذهاب إلى المعبد اليهودي في منطقتهم، وعمل حفلات ولقاءات لليهود العجائز في منطقتهم.

في تلك الفترة كان أبي قد حصل على ماكينات خياطة (منحة من الدولة) وصار يخيط الملابس ويبيعها في الأسواق، وبعد العمل المتواصل امتلك مصنعاً كبيراً بعد فترة من التعب وكانت أمي تقف بجانبه كشريك، وكان عمال من العرب يعملون ويساعدوننا في المصنع.

وكان يحصل على مزادات لتوريد الملابس للجيش وتقديم تصاميم تساعد الجنود في الحركة والبقاء أحياء، فكانت أمي تساعده في ذلك.

كانا يحبان المشي الطويل في الشوارع وسماع الموسيقى، مرةً أكون محمولاً على ظهر أبي، أو تضعني أمي في عربة حمراء تدفعني بها.

وفي كثير من المساءات كانت الشرطة وبعض جنود الجيش يغلقون الشوارع المؤدية إلى البحر، وعلى حسب نظرهم أن هناك عمل تخريبي من طعن أو سرقة أو ضرب أو مخالفة مرورية من أحد العرب المتجولين في المكان.

لم يهتم أبي وأمي الأمر كثيراً، فكان أبي يحملنا ويركض بعيداً، أو نعود للبيت ونؤجل الرحلة أو النزهة إلى وقت آخر. تعلمت المشي، وكنت أركض أمامهما، وصرت أتقافز على ماكينات الخياطة، وكان العمال العرب يهتمون بي، وصرت ألتقط بعض الكلمات العربية، مثل مرحبا، كيف الحال، السلام عليكم، يعطيك العافية، وقت الأكل، تصريح عمل، مقص، يا حج...

ومن المدهش كان أغلب العمال يتحدثون مع أبي العبرية بطلاقة، وخاصة أبو رامي، أحد العمال، كان يجيد قراءة وكتابة العبرية، كأنه مواطن أصلي، وتعلم العبرية، حسب قصته، لأنه كان يعمل وهو صغير في مدينة طابا في سيناء في المطاعم التي تقدم طعاماً للسائحين والزوار الإسرائيليين.

كان أبي يعتمد على أبو رامي في قراءة الطلبيات والفواتير الضريبية وتحصيلها وتوصيل النقود إلى مقر دفع الضرائب. في مرة اختفى أبو رامي لمدة ستة شهور، ولم يحضر للعمل، وحين عاد، قال لأبي: إن بعض الشباب في المخيم يحملون بنادق ويضعون لثام على وجوههم، سحبوا كل التصاريح من العمال قبل الدخول من نقطة تفتيش (إيرز)، وكانت الحجة كيف تعملون عند من سرق أرضنا ويقتل أطفالنا؟!

كانت أمي تقف وقت حديث أبو رامي، لكن هي وأبي لم يعلقا على الحديث، رد أبي بجملة صغيرة: بأن الأمور في المستقبل سوف تصير أفضل والكل سوف يكون سعيداَ، ومن يمنعونكم اليوم من العمل سوف يحضرون غدا للعمل عندنا.

بدأت السمنة تظهر على أبي، وبدأ كرشه يكبر، وكان دائماً يرتدي ملابس فضفاضة وطاقية أمريكية ونظارة سوداء فاخرة، ولديه سيارة كبيرة لحمل البضائع وتوصيلها للأسواق، ويحمل بيده قنينة ماء وكأس قهوة كبير، كانت القهوة من

ذوق أبو رامي يجلبها من غزة، على حسب قوله لأبي: أنه يصنعها في بيته ويضيف عليها حب الهان وجوزة الطيبة، وأشياء أخرى، كانت تطيب لأبي ولجميع العمال الموجودين في المصنع.

أمي كان لها مكان خلف المصنع شبيه بغرفة طويلة (مرسم)، بها عشرات الألوان والفراشي واللوحات الطويلة المغطاة بقماش أبيض وكل أدوات الرسم، ترسم أمي خطوط وتصاميم وألوان، وكل يوم تدعو أبي لمكان الرسم والتصميم وتقترح عليه استخدام الألوان والتصاميم لبدلات العسكرية.

كان أبو رامي وأبي يقفان وسط المصنع يدققان في المواصفات المطلوبة لآخر طلبية عمل لشركة الأمن الخاصة برجال الدولة، وكانا يتناقشان بصوت عالٍ يفوق صوت الماكينات.

وأنا قد جئت من مرسم أمي إلى ناحية أبي، فجأة بدأ جسدي يتعرق وصرت أرتجف والعرق بلل وجهي وجسدي، كأن فوق رأسي غيمة ماطرة، فسقطت تحت قدم أبو رامي، وصوت الماكينات كاد يفجر رأسي، أبو رامي رفع أقدامي إلى أعلى،

وأبي صار يصرخ في وجه العمال بأن اخفضوا صوت الماكينات.
صرخ أبي مرتعباً: أبو رامي اتصل على سيارة الإسعاف، وحملني العمال العرب وكان خلفي أبي وأمي عند بوابة المصنع، حتى وصلت سيارة الإسعاف.
دقائق وقد دخلت في نوم كأني عائد من يوم سباحة مرهق وكنت بحاجة إلى هذا النوم.
أمي وأبي وأبو رامي يقفون أمام غرفة الكشف الطبي، وبعد ذلك خرج الدكتور وأخبرهم بأنني أعاني من ضعف شديد في عضلة القلب، سوف نعطيه بعض الأدوية، لكن سوف يعاني طويلاً حتى نجد متبرعاً لقلب جديد.
كلمة متبرع بقلب جديد، كانت جديدة على كل من سمعها، يمكنك أن تجد في ذلك الوقت أحدهم يتبرع بالمال، بالأرض، بالملابس.... لكن بالقلب!

كانت أمي تقف فانهارت بالبكاء وأبي فقد الكلام، أما أبو رامي بادر بسؤال الدكتور: من أين سنحصل على قلب جديد أقصد بمتبرع بالقلب؟.

رد الدكتور: هناك بعض الناس حين يموتون، يوصون بالتبرع بأعضائهم للخدمات الإنسانية، أو نراسل مجموعة مشافي مهتمة بالتبرع بالأعضاء الجسدية (الإنسان) وهي المشافي العالمية الموجودة في دول كثيرة، حين يحصلون على جثة، نأخذ القلب وننقله لولدكم، ونرسل كل البيانات الطبية لطفلكم من فصيلة الدم والطول والوزن وبعض البيانات، إلى أن نحصل على متبرع بعمر ومقاس قلب يناسب موشي.

أبي تحدث بصعوبة: كيف نحصل على قلب من طفل مقابل لعمره.

الدكتور: في أمريكا يوجد الكثير من الحوادث يومياً، على حسب تواصلنا مع الصحة هناك وجدنا الكثير من المتبرعين بالكلى والرئة وبعض أجزاء من الكبد، وهناك شركات مهتمة بذلك الأمر، ولا أخفيك سرا هناك حالة من الفقراء يبيعون أجسادهم في حالة الموت تأتي هذه الشركة وتأخذ الجسد وتتصرف في بيع أعضاءه. يمكنك الذهاب هناك قد تجدون متبرع.

مكثُ طويلاً في المشفى بين الأدوية والمحاليل والشراشف البيضاء، وجلدي صار أصفر، وأتنفس بصعوبة، ودائما على أنفي جهاز التنفس...

حلم واحد كان يرافقني طوال الوقت، طفل يركب دراجة صفراء وخلفه سبع فراشات ملونة، بعضها كبيرة وبعضها صغيرة وهي تتدافع لتلحق بهذا الطفل.

(عليكم تذكر رقم سبعة في هذه القصة، ليس سر اًولكن هناك لحظات في حياتك لابد أن تهتم بالعدد وتحفظه، كرقمك الوطني، ورقم قفل حصالة النقود، والكثير من الأرقام، لكن رقم سبعة مهم في هذه اللحظة).

قرر أبي أخذي لأمريكا للعلاج وكان هدفه الحصول على قلب من أي أحد، ترك المصنع خلفه لأبي رامي يديره في فترة غيابه، فوافق على ذلك، وحملني أبي وأمي إلى هناك، وهذه فرصة أيضا لهما أن يجتمعا بعائلتيهما بعد غياب دام أكثر من عشرة أعوام.

عائلتي يحاصرها الفراغ، وسوء الحظ يلاحقها بين أزقة الحياة، وحاولوا كثيرا أن يعبروا الشارع ليلتقطوا كرات الأمل

من الطرف الآخر، لكن الأقدام لا تقدر أن تنقلك، وحين تشجع نفسك يصير الشارع مكتظاً بالشاحنات الكبيرة والجرافات الصفراء صاحبة الصوت العالي، تنتظر أن يهدأ هذا الزحام، تكتشف أن عمرك قد فر منك، وتتحول إلى شيء إسفنجي، تخاف من تجارب جديدة.
وقتها لم تجد عائلتي سوى جدران المعبد كي تحمي خوفها عليّ من ضربات الحياة، كأن مرضي بالقلب خطأ كبير لا يغفر لي.

وقت وجود عائلتي في أميركا، قادها جدّي وجدّتي اللذان أصبحا سيدا المعبد اليهودي في المنطقة، وكان جدّي مسؤولاً كبيراً عن شؤون الجالية اليهودية هناك، من حل مشاكل وتوفير كل ما يلزمهم.
يساعدهم في السفر إلى دول كثيرة، وخاصة إلى إسرائيل، وجدّتي كانت تتردد على مؤسسات لمساعدة فقراء اليهود في العالم.
لكن كل هذا لا يهم، ولم يخدمهما في أن يجدوا قلبا لحفيدهما، وبعد أن علم بعض اليهود من أصدقاء جدّي

وجدّتي بالأمر، اقترحوا عليهما بعض الدول في أفريقيا، حيث توجد حروب أهلية طاحنة بينهم، وأيضا هناك سوق لتجارة الأعضاء ويمكن توفيره بسهولة، لكن أبي كان يرفض بأن يكون توفير القلب حوله شبهة أو موت أو اختطاف.

الجميع التزم جدار المعبد ليلا ونهارا، حتى أمي كانت صامتة، وفي لوحاتها ترسم قلباً وتكتب بعض الجمل متصرف بها من الكتاب القديم، منها (يا رب نريد قلباً أبيض) (في يوم السماء ستنزل قلباً).

صارت أيامي ما بين المشفى والبيت والمعبد، كانت صديقات جدّتي يجلسن بالقرب مني ويتمتمن بكلمات بها أسماء أنبياء ومعارك وجمل كان يستخدمها اليهود وقت الشدائد. وحتى كانوا يحضرون أشياء غريبة لموشي ومنها، زجاجة عرق مباركة باستخدام هذه كل من يشرب منها يشفى من مرضه. وأيضا مياه مطر مباركة كانت إحدى نصائح حاخام قديم للحفاظ على الصحة هي شرب ماء المطر الذي يهطل في شهر مايو، والذي كان بحسب رأيه أفضل من أي دواء. ربما هذا هو سر حياته المديدة. وجلبوا ليّ تميمة

يوسف مكتوب عيها "يوسف غصن شجرة مثمرة على عين أغصان"، وهي تحمى من كل حظ سيئ. وكانوا يرشون الملح على الأرض التي أمشي عليها في المنزل والمشفى، من أجل إبعاد الحظ السيئ. وكانوا يضعوا بجانب رأسي الساعة التي سيحضر فيها المسيح (ساعة خشبية تشير إلى الساعة 12 وقت حضور المسيح) لأنهم يعتقدون أنه يوم الخلاص وسيخلص العالم من جميع الآلام.

[2]

[القلب يتكلم، وقبل عشرة أعوام من مرض موشي أيضا حدث هذا]

أن تعيش مع أب وأم وجدة في بيت واحد هذا عادي جدا، وأكثر ألفة، بل تكون منصفا في الشعور وتوزعه على عائلتك بشكل عادل، تشكر الأب على وقته الذي يقضيه طويلاً في العمل ليجلب المال، وتبتسم في وجهك أمك دائماً بعد كل وجبة تقدمها على مائدة الطعام، وتقبل يد الجدة التي تجلس في وسط البيت بالقرب من التلفاز وتشم رائحة وطنك البعيد عنه.

أبي جاء قبل خمسة عشر عاما إلى أمريكا، ولاية لوس أنجلوس، ليكمل دارسته في الفيزياء وبعد أن تخطى عدة امتحانات ليحصل على التعليم المجاني في الجامعة، حيث

كان من الصعب أن يحصل أي فلسطيني على التعليم في أمريكا إلا بشق الأنفس، تعلم أبي الفيزياء في الجامعة لأن هذا التخصص يُدرس مجاناً، لقلة أعداد الطلاب فيه، فقررت الجامعة أن تقدمه بالمجان.

كان من الطلاب الذين تعلموا الفيزياء في نابلس على نفقة لجنة الأسرى لأن جدّي كان معتقلاً مدى الحياة رغم أن جدّي دخل سجن نفحة بتهمة توزيع الحلويات النابلسية في المناسبات الوطنية، وحين دخل السجن تصادم مع أحد الحراس فضربه جدّي بعنف فحكم عليه القاضي عدة سنوات.

يبدو أن السجن أصبح جزءاً من تفاصيل جدّي صالح، كل عام يُقدم لمحكمة جديدة بعدة تهم بسبب الأنشطة المقاومة لسياسية الاعتقال.

فكان قائدا في السجن، وحرض الأسرى على الإضراب عن طعام السجون، وقد خاض عدة مراحل في التحريض، حيث أضرب أكثر من أربعين يوما وهو وزملاؤه عن الطعام لطلبهم بعض الحقوق كي تخفف عنهم مشقة السجن، ونجح

الإضراب وسمح لهم بإدخال جهاز الراديو داخل الخيام، وزيادة وقت زيارة الأهالي للأسرى، حيث أصبحت كل شهر مرتين، ولكن جُدد اعتقاله لسنوات.

وفي يوم حرض جدّي السجناء على حرق فراش النوم، وصارت ضجة كبيرة عند الحراس والجنود، فقمع كل السجناء بالغاز المسيل للدموع، وضُربوا بالعصي، وأطلقت عليهم الكلاب الشرسة، فخطف أحد السجناء بندقية أحد الحراس، واتُّهم جدّي بهذا العمل، فكلفته هذه التهمة حكما مدى الحياة في السجن وقد تدخل المحامي لتخفيف الحكم.

ومن وقتها جدّي فقد الأمل في الخروج، وصار شاويشاً (مسؤول) على المطبخ، وظّل جالسا في جدران المطبخ صامتا لا يتكلم كثيرا، وصار ينقل صندوق الكتب بين الخيام، ليقرأ المعتقلون، كان يقلب صفحات الكتب كما يقلب ذكرياته القديمة وخاصة صناعة الحلويات ومنها النابلسية.

رغم أن ميول أبي نصر كانت أدبية، وكان مسؤول الإذاعة المدرسية، ويلقي شعراً في المناسبات الوطنية، خاصة في

يوم الأرض، كانت كل مدينة نابلس تنتظر أبي ليلقى قصيدته في هذه المناسبة.

أبي ينحدر من عائلة كبيرة عاشت في مدينة نابلس، تشتهر بصناعة الحلويات وخاصة النابلسية، الجد الأكبر كان ماهراً في صناعتها وخبزها في الفرن القديم.

(الأفران القديمة، مسرح للقصص، حيث كان النساء والرجال يحملون صواني العجين ويأتون لخبزه، وكان أهل نابلس، بل كل فلسطيني في تلك الفترة، يتسابقون للقدوم للسوق القديم في نابلس ليحصلوا على صحن من النابلسية، تعلم جدّي وأخوته المهنة، وورثها الأولاد، حتى تغير اسم عائلتنا من دهرور إلى النابلسي...).

أبي أكمل تعليمه في دراسة الفيزياء وكان متخصصاً في فيزياء الفضاء، وعرض عليه العمل في وكالة لتصنيع الطائرات والمركبات الفضائية، لكن بشرط عدم العودة للوطن، وأن يمنح الجنسية الأمريكية، براتب كبير، وحراسة وبيت واسع وسيارة، فوافق أبي على أن يتطور في علمه وقد يرجع في يوم لوطنه بعلم مهم يخدم به فلسطين، لكنه رفض كل هذه الأشياء وقال: لا حاجة لي بذلك، وحتى أنه رفض

التخلي عن الجنسية الفلسطينية، وافقت الجامعة على ما يريد لكن ليس بشكل كامل.

أبي كان وحيدا لجدّتي وجدّي، فبعد أن جاء للحياة وهو رضيع اعتقل الجنود جدّي، فصارت جدّتي فاطمة وحيدة في البيت، لكنها كانت سيدة تستطع تحمل كل الصعوبات وكانت كل مدينة نابلس تزورها وتعرفها وتدعوها لكل المناسبات الوطنية لتتحدث بكلمة لأنها زوجة أسير، ووقت سفر أبي لأمريكا كانت أصعب لحظات حياتها.
وبعد ثلاث سنوات رجع أبي إلى نابلس بعد أن حصل على إذن للعودة وتزوج من أمي، وقد تعرف على أمي غادة وظلت عالقة في ذهنه حين غنت أمي أغنية (عيوننا إليك ترحل كل يوم) في إحدى الاحتفالات في المدينة، فكانت جدّتي تنصح أبي بأن يتزوجها، فوافق بالزواج من أمي بشرط أن تأتي جدّتي فاطمة معه للعيش في أمريكا، وكان يغريها بقوله: هناك عرب لطفاء سوف تعيشين معهم وستكونِين سعيدة بمعرفتهم.

جدّتي وافقت على ذلك، لأن أبي نصر هو الوحيد لها، وجاء كل سكان نابلس لتوديع جدتي بالبكاء والحزن، ووعدتهم بأن تعود قريباً جدا، سافر أبي وأمي غادة وجدّتي إلى أمريكا وعاشوا معا وبعد سنة من الزواج أنجبني أبي وأطلق عليّ اسم سعد.

[3]

[لكن ما حدث معي بأن يكون لي أبوان وأمان وجدتان، قد يحسدني الأيتام على هذا الانفراد في هذه العائلة الكبيرة جدا، أن تقول لرجلين كلمة بابا، أن تحضنك سيدتان وتقبلاك لأنهما تحملان نفس المكانة العائلية الأم، والحديث يطول عن كلمة الجدة، أنا بين جدتين تشبهان القطب الشمالي والجنوبي في المغناطيس، مثل خطي القطار الطويل لا يلتقيان، في هذه العائلة الجديدة أشبه شخص يرتدي جوارب بلونين في كل قدم لون، أشبه أن تحلق نصف رأسك وتترك النصف الآخر.

تشبه المجانين تنام بالنهار وتركض في الشوارع ليلا، أن تضحك وقت البكاء وتبكي وقت الضحك.]

في صيف مدينتا الملونة ينشط كل شيء وخاصة الجمال في كل مكان، وقتها جلب لي أبي دراجة صفراء جميلة كهدية.

وقد أوصاني ألا أركبها إلا في المنتزه المخصص لركوب الدراجات القريب من بيتنا في لوس انجلوس.
منتزه كبير جدا مزروع بأشجار طويلة، وفيه طيور من كل الأنواع، وممرات مخصصة للدراجات، وممرات للكلاب، وممرات للمشاة، وأكشاك لبيع المثلجات والمشروبات، والباعة الذين يحملون البالونات الملونة الكبيرة منتشرون في المنتزه، والعجائز بالعشرات بنظاراتهن الطبية وشعورهن البيضاء، وملابسهن الصوفية، والقبعات غريبة الشكل، يجلسن على مقاعد خشبية في الجزء الخلفي من المنتزه، يراقبن كل شيء، وأغلبهن برفقة جهاز مساعدة المشي (الووكر)، وبعضهن يخرج حقن الأنسولين ويحقنَّ أنفسهن، ومن ثم ينادين على بائع المثلجات، وبعضهن يخرج بخاخة الفيتولين ويضخ عدة بخات داخل قفصه الصدري، ومن ثم

تخرج لفافة تبغ كأنها تخرج شيئاً ممنوعاً، وتلتفت شمالاً ويميناً ثم تشعلها.

بدأ راكبو الدراجات في المنتزه يقومون بحركات بهلوانية، أغراني حركة أن تقود الدراجة على حافة سياج حديدي، فكان أحد الشباب يقوم بالحركة بسهولة وإتقان.

لم أهتم لقلة مهارتي في قيادة الدراجة، فقررت أن أخوض هذه المغامرة، رغم أنه لابد أن ألعب مع مجموعة الأطفال بنفس عمري.

قررت أن أجرب، فرجعت عشرة أمتار عن السياج وأسرعت بشكل كبير، وتقدمت ناحية السياج وقفزت بالدراجة على الحافة، وحاولت أن أتزن أنا والدراجة، وحين وصلت للمنتصف كنت متزنا، وقبل أن أصل إلى النهاية، صار الحضور يصفق ويصرخ فرحا بما أقدمت عليه، لكن مع فرحتي بذلك سقطت عن الحافة الحديدية.

سقطت على الأرض وكانت الدراجة تعلوني وطرف المقود الحديدي يُغرز في عنقي، ووجهي ملتصق ببلاط المنتزه،

وكل ما أتذكره صوت أبي وصراخ أمي المرتجف وجدّتي فاطمة كانت تحضنني وشاشها الأبيض غطى وجهي.

لاحظت بعض الأحذية السوداء تقترب مني، صوت سيارة الإسعاف كان عالياً. حتى العجزة وقفوا على أقدامهم من مشهد السقوط ومنهم، خوفاً، من استخدمَ بخاخة الفيتولين مرة أخرى.

المسعف كان وجهه أحمر ويتعرق من مدى خطورة إصابتي، ويداه يرتجفان وهو يضع جهاز التنفس على وجهي، أبي وأمي كانا يجلسان بالقرب مني بدون أي حركة سوى بعض كلمات تشبه الدعاء، وعيونهم تبحلق وقد ملأها الدمع، يبدو أني أفارق الحياة.

أدخل في غيبوبة، أتذكر أنه كان حلمًا طويلًا للغاية، بل كان الأمر بمثابة كابوس، وقتها شعرت أنني تتم مطاردتي من الدمية تشاكي وهي تحمل سكيناً، كانت تحاول قتلي.

في نهاية المطاف، في النهاية لا أعرف هل تشاكي قتلتني أو أنني أفلتُّ منها، وبعد الركض جاء رجل بمعطفٍ أبيضٍ

طويلٍ، وأوضح: أنه سيأخذني إلى الجنة إذا كنت مستعدًا. كان والداي هناك وكانا حزينين للغاية لأنني سأتركهما، وأتذكر أنني كنت أفكر في الأمر كثيرًا وأزن جميع الخيارات، لكنني قررت أخيرًا أنني سأذهب مع الرجل ذو المعطف الأبيض. عندما أخبرته أنني مستعد، ابتسم لي وقال: "آسف، هذا ليس وقت كل جسدك سوف نترك شيء منه في الأرض ونأخذ الباقي". ثم صعد إلى السماء واختفى إلى النور. كنت مستاءً للغاية لأنني كنت على استعداد للذهاب معه كاملاً لكن لم أفهم معنى سنبقي جزء من جسدك.

لا أعلم كم مكث في هذا المكان قبل أن يعلن الطبيب وفاتي من أثر صدمة بالأرض بشكل مباشر من قيادة دراجتي بشكل خاطئ داخل المنتزه، لكني أتذكر أني كنت أعيش في مكان لا أحتاج فيه لطعام أو شراب ولا أشعر بحاجة للهواء لأتنفس، الذي تحتاجه هو نظرك القوي وإحساسك بما يدور حولك، مكان قريب لبيت يجهز لك، تقف بطوابير تفقد التعب أو الانتظار مما ترى، تكون في حالة دهشة دائما فيما ترى من حيوانات جديدة لم تشاهدها في برامج الحياة البرية على

قناة ناشونال جيوغرافيك، لن تتخيل كمية الضباب المنتشر في كل التفاصيل، كل الأشياء تخرج منه وتعود إليه، نمشي بسرعة كبيرة في ممرات طويلة دون خوف مما أنت فيه، كأنك أمام فيلم سينمائي بأشكال جديدة، تشعر أن كل شيء كائن حي، الضوء والحجر والأشجار كل شيء يتحرك بمدارات خاصة وفجأة يزيد الهدوء هدوءً، تأتي كائنات طويلة جدا أعلى من الضباب المنتشر، تبقى معلقاً بها حتى تمضي، ليس لها ملامح لا تخاف منها ولا تفرح لرؤياها.

اتجه الطبيب وطاقم من الممرضين ومدير المشفى الذي كان يرتدي بدلة سوداء وبيده أوراق وقلم، ناحية السيد نصر النابلسي وزوجته غادة محمد اللذين ظهر عليهما التعب والتوتر من الوقوف لساعات أمام باب غرفة العمليات الطارئة..

- يا سيد نصر لم نتمكن من إنقاذ طفلك، لأنه وصل المشفى وكان قد فارق الحياة، حاولنا أن ننعشه لكن لم نقدر في خلال الساعات الماضية.

السيد نصر وزوجته جلسا على الأرض من صدمة الخبر، وصارت غادة تنوح بصوت عالٍ، فحضنها زوجها بقوة وأخذا يبكيان.

- سيد نصر نحن نعلم أن هذا الموقف صعب جدا، والحزن كبير، ونحن نعلم أيضاً أنك تدرس الفيزياء في الجامعة، وقد سألنا عنك وكل من تتعامل معهم، فأنت إنسان بمعني الكلمة، ونحن جئنا لنخبرك بموت ولدك ولكن مازال قلبه ينبض، ونريد أن ننقل قلب طفلك في جسد طفل جديد، لأن هذا الفتي يعاني كثيرا من ضعف شديد في القلب، ونريد موافقتك على نقل القلب حتى ينجو طفل آخر من الموت، لو وافقت على هذا سنكون نحن وعائلة الطفل الجديد ممنونين لك كثيرا على خدمة الإنسانية، نعلم بأن طلبنا ليس في وقته، ولكن أنت تعلم بأن القلب له مدة من الزمن ويموت ويلحق بالجسد، فنرجو منك الموافقة على نقله قبل أن يقف النبض، وعلها تكون فرصة جيدة ليبقى شيء من طفلك في جسد آخر، وقد تحب هذا الجسد الجديد أنت وزوجتك.
- أفهم هذا، بصراحة هذا شيء غريب! ولا أعلم ما هو الردّ المناسب في هذه اللحظة، موت ولدي سعد من تلك الدراجة

اللعينة، كان عليّ أن أنتبه له حين أقدم على مغامرته، لكن هذا ما أراده الله، (رد السيد نصر)، وقتها انتبه لزوجته وهي تنوح.

- تدخل مدير المشفى في الحوار قبل أن يسأل السيد نصر زوجته: أنت تعلم أن السيدة غادة في حالة صعبة ولا يمكننا أخذ رأيها الآن، لكن لو وافقت أنت ونجحت العملية، سوف تشكرك على الموافقة، لأن جزءا من طفلكم سعد يبقى على هذه الأرض. (لم يسأل السيد نصر لمن سوف ينقل القلب، كان شعور بقاء جزء من ولدهم أكبر من كل الاعتبارات أو تفاصيل أخرى ما هو اسم المريض أو ديانته أو لون بشرته.

[4]

كانت عائلة ديفيد مردخاي تجلس في غرفة الصالون في البيت الجديد الذي تمكث فيه (قريب من المشفى) خلال مرض ابنهم موشي (ضعف شديد لعضلة القلب)، وقد جاء الجدّان (من ناحية ديفيد) لزيارتهم والوقوف بجانبهم في هذا الوقت، لم يدر الكثير من الحديث في هذا اليوم، ديفيد يقلب الصحف والمجلات الطبية عن أمراض القلب، وزوجته سارة تلون فناجين القهوة والشاي وترسم عليها قلوب حمراء ووجه ولدها..

والجدّ يجلس بالقرب من النافذة الزجاجية وبيده كتاب بغلاف مخملي قديم ويقرأ به وكلما قرأ صفحة أو صفحتين علق نظره في النافذة مع تمتمات غير مسموعة، الجدة كانت تربط منديلاً مزركشاً قصيراً على شعرها الأبيض وتنورة من

الصوف تغطي نصف أقدامها وتتأمل حزن ديفيد ابنها وزوجته سارة مرة، ومرات كانت تغوص بالنعاس..

رن الهاتف بصوت قطع صمت المكان الرهيب بالمكان، وقف الأربعة كأنهم في طابور عسكري (قلق من هذا الهاتف)..

كسرت سارة الصمت وركضت إلى الهاتف لترد، كان يقف بالقرب منها الثلاثة، وديفيد التصق بها.

المتحدث هو طبيب طفلهم موشي، بدأ يتكلم مع سارة لم يسمعه أحد، لكن ملامح سارة فجأة تكون سعيدة وفجأة تكون حزينة..

انتهت من المكالمة، والتفتت لديفيد وهي تضحك فرحاً، لقد وجدوا قلب لموشي، وجدوا المتبرع، فقفز الجميع فرحاً، وصاروا يحضنوا بعضهم البعض، حتى صاروا يدورون في دائرة كأنهم يرقصون. أخبرته سارة: الآن علينا التوجه للمشفى لأن الطاقم الطبي قد يبدأ في نقل القلب خلال دقائق.

رفع الجد يده للسماء وصار يقول شكراً لك أيها الرب، وأمسك يد زوجته وعكازه ومشيا خلف ديفيد وسارة. المشفى لا يبتعد كثيراً عن البيت، لكن كانت القلوب تخفق كأنها آلات موسيقى كهربائية عالية الصوت.

سأل ديفيد سارة: شعرت أنك كنتِ حزينة مرة حين كنتِ تتحدثين مع الطيب، وقتها لم ترد سارة عن السبب، كأنها تخبئ شيئاً في تفاصيل نقل القلب.

[5]

قبل أن تدخل عائلة موشي المشفى، كان السيد نصر وزوجته غادة وأمه فاطمة يجرون جسد سعد على سرير متحرك ومعهم أحد حراس ثلاجة الموتى، كانوا يمسكون بالسرير كأنه شيء يريد الهربَ..

الصمت يخيم في المشهد سوى صوت عجلات السرير الذي يتحرك ناحية الثلاجة..

الدموع وصلت إلى حافة السرير.. حتى ضوء الممر الطويل صنع خلفية لمشهد من حزن عميق مع لون الجدران الأخضر الغامق، ثمة بوح في عيون عائلة سعد لم يحنْ موعده.. ثمة قصص وحركات وضحكات وحُلْمٌ لم يكتمل معك يا سعد..

دخلت عائلة موشي مسرعة بل صار ديفيد وسارة يركضان بسرعة تاركين العجوزان خلفهما، اصطدمت سارة بالسرير المحمولة عليه جثة سعد، فسقطت أسفل السرير فانكشف الغطاء عن رأس سعد، فصرخت سارة حين شاهدت وجهه: ولدي موشي، (ظننت أن موشي مات) انتبه ديفيد للصراخ، ساعد سارة في النهوض عن الأرض، وأخبرها بأن موشي لم يمت إنه في غرفة العمليات، واعتذر على الخطأ من عائلة سعد، وأكملا ركضهما ناحية غرفة العمليات.

الحاجة فاطمة سألت ولدها نصر: لماذا يركضون بسرعة؟، كاد سعد أن يسقط من فوق سريره من صدمة السيدة الشقراء المجنونة.

رد: يا أمي يركضون لأنهم شعروا بأن الحياة سوف تعود لمصابهم، ونحن يا أمي نمشي ببطيء لأن هذا هو الموت والفراق، فصارا يبكيان وغادة كانت غارقة في البكاء والنحيب وكأن كل الأشياء تردد ما في قلبها من كلمات.

غابت شمسك عن سمائي يا طفلي فأصبح الكون كله ظلاماً دامساً، أصبح الكون كله بدون ألوان أو ملامح أو أصوات،

لم يعد سوى صدى صوتك يرن في أذني، لم أعد أرى سوى صورة وجهك، أهلكتني أوجاع الحياة ليت الحنين يتوقف قليلاً، لألتقط أنفاسي. لو كَانَ الأَمرُ بِيدِي لأَخفيتُ انهيارَ دُموعِي عَن الجَميِع، ولكن سُحقاً لتلكَ الأعيِن التي تَفضحُ ما تُخفي القُلوُب.

[6]

في الجهة الأخرى كانت عائلة موشي تدور حول سريره وقد كان نصف فاقد للوعي، فدفع الطاقم الطبي موشي لغرفة العمليات، وكان أحد الأطباء يحمل صندوقاً أبيض بارد الملمس يضع فيه قلب سعد الصغير لإتمام العملية.

- سأل أبو ديفيد العجوز الطبيب: كم تستمر هذا العملية.
- رد الطبيب: ليس أقل من 6 ساعات بكل صراحة سوف ننزع قلب موشي، ومن ثم نضع القلب الجديد، عملية معقدة لكنها أفضل من اختيار الموت البطيء.
- قطع ديفيد كلام الطبيب، هل نحن على صواب بالموافقة على إجراء هذه العملية، وأنت تقول سوف ننزع قلبه القديم ونضع قلبه الجديد وما أدارك لعله لا يعمل.

- ليس عندنا وقت للدخول في هذا الحوار، أنت كنتم تنتظرون نقل قلب لموشي ونحن أمام هذه الفرصة، رد الطبيب.

أشارت والدة ديفيد للطبيب بأن يُقدم على هذه العملية، أما سارة فقد اكتفت بالنظر في وجه موشي ويدها بالقرب من ناحية القلب.

جُرّ موشي إلى غرفة العمليات، والطبيب الذي يحمل قلب سعد، كان يبتسم كابتسامة مصلح السيارات حين يضحك في وجه الزبون بأن السيارة تكون جاهزة بعد ساعة من الآن...

(الأشياء يصير لها لغة خاصة في هذه اللحظة حين يختفي من تحب خلف باب العمليات، وتصير تخبرك بكلام يجعلك متوتراً وتلوم نفسك) حين تقف أمام باب غرفة العمليات وابنتك على الناحية الأخرى من الباب تبدأ في التشكيك بقراراتك "هل اتخذت القرار الصائب؟" وقد يصل بك الحال للتشكيك في أهليتك كأب.

لا تهم نسبة الخطر في أي عملية، فحين تكون مسؤولاً عن حياة شخص، ويكون هذا الشخص قطعة من روحك، فإن أي نسبة حتى ولو اقتربت للصفر تظل مخيفة.

حين يُغلق باب غرفة العمليات، سوف تشعر بالقلق. ستخبر نفسك أنك وصلت لهذا القرار بعد الكثير والكثير من التفكير والمشورة، سيمر بعض الوقت قبل أن تبدأ أفكارك في الهدوء، وتصبح الساعات والدقائق رفيقيك للفترة القادمة. ستهرع إلى هدوئك في كل مرة تجد نفسك قلقاً وتميل إلى السلبية، في مثل هذه اللحظات تريد أن تدخل غرفة العمليات وتقول بصوت عالِ لا تقلعوا قلب ولدي القديم.

مع اقتراب وقت انتهاء العملية الذي أخبرك عنه الطبيب، ستبدأ في الدوران عند باب الخروج، وفي كل مرة يُفتح الباب وترى أنه ليس ابنك ستشعر بالقلق، وفي كل مرة يُفتح الباب وترى وجهاً غريباً يتضاعف هذا القلق، وماهي إلا بضع مرات قبل أن تجد نفسك تدق الباب ليطالعك وجه الممرضة لتسألها عن حال ابنك، وتجيبك في برود أنه في "غرفة

الإفاقة" وتغلق الباب متجاهلة نظرة القلق في عينيك، فهي قد شاهدت هذه النظرة ألف مرة، والتعاطف يعني فتح ألف باب هي في غنى عنه.

بمجرد أن يُفتح الباب وترى ابنك على السرير وعلى وجهه علامات التيه بسبب مفعول المخدر، سترسم ابتسامة خفيفة على وجهك، وتقول في نفسك: متى أرافقه إلى غرفته؟ وتشعر أنك وقفت مائة عام أمام البيت، وماهي إلا ساعات قليلة، تتخيل كل شيء لطيف لعله يعوض شعور غريب بالذنب أو تعويض لساعات الانتظار الذي قضيتها مشتاقاً إليه...

وبنهاية اليوم سوف تهدأ عاصفة المشاعر، وتعود لتقلد مكانة الأب الواثق من نفسه...لكن بداخلك ترجو ألا تعيد هذه التجربة.

خرج الطبيب والطاقم الطبي وخاصة الطبيب الذي يشبه الميكانيكي أيضا يبتسم، قفزت عائلة موشي لتسأل عنه.

أشاح الطبيب الكبير بيده بالهدوء للجميع وقال: بأن الساعات القادمة هي الأخطر في حياة موشي، لقد تمت

العملية، المهم من كل هذا أن يتعرف جسده على القلب الجديد..

الطبيب الميكانيكي قال بصوت به ابتسامة، إن القلب الجديد أقوى مما نتوقع رغبةً في الحياة، ينبض بجسد أو بدون جسد، المهم أن يتعرف على جسد موشي..

[7]

الأيام تذوي.. والعمر ينقضي شيئاً فشيئاَ.. لحظات أعدها.. بل سويعات أترقبها.. إنها من أصعب اللحظات التي أعيشها هذه الأيام.. تلك اللحظات التي يقف بها شبح الفراق على ناحية طريقي إليها.. فما أستطيع حراكاَ خوفاَ من لقائه.. ومالي سبيل لأنأى عنه.. تلك اللحظات التي سأفارق فيها أعز الناس وأقربهم إلى نفسي.. نعم فهو وداع لأيّام معدودة.. لكنها بالنسبة لي سنين وقرون.. حينها أقول ليوم الفراق لا مرحبا ولا أهلا في غد.. إن كان تفريق الأحباب في غد.

مرت أشهر على رحيل سعد، وأنا على يقين بأن كل إنسان على وجه هذه الأرض قد شرب من كأس الفراق الحزين

وذاق من علقم الفقد ولوعة الوداع، والأب أو الأم حين يودعان ابناً أو قريباً أو حبيباً فإنهم يعيشون على أمل يتجدد دوماً بعودته مرة أخرى، ولكن كيف إذا كان الوداع لابن غالٍ يتوسّد لبنةً وفوق جسده الضعيف أطباق من الثرى ولا أمل لعودته، وهنا تبدأ قصة طويلة من الحزن والآلام التي لم يمحُها مرور الأيام لأننا كنا دائماً وأبداً نتذكر أنه بيننا وأنه لم يرحل، غرفته، حاجياته الخاصة كلها ذكريات تذكرنا به، نتذكر كلماته نتذكر هواياته نتذكر أي أشياء كان يحبها فنتعلق بها ونحبها لأنها تذكرنا به.

أشهر مضت على رحيله وما زالت عائلة سعد تعاني من مرارة الرحيل، مضت وفي كل يوم تتذكر ذلك الوجه البشوش والجسد الذي يقفز في كل مكان.

بعد هذه الكلمات التي تتطاير في كل قطعة أثاث موجودة في البيت، على الكرسي الذي كان يجلس عليه، في غرفة الألعاب، حتى الدراجة الصفراء المتروكة عند مدخل البيت، ملابسه وأحذيته، قنينة الدواء ودفاتره وكتبه، كلها تردد صوت صدى هذه الكلمات التي تقرأها على وجه أمه وأبيه والجدة

التي زادت تجاعيد وجهها، والتي همت بالعودة إلى مدينة نابلس لأنها تذكرت زوجها وتذكرت تفاصيل حياتها القديمة، وتغيب سعد بسبب الكثير عن العمل في قسم الفيزياء، والجوابات المرسلة من العمل كتحذير عن تأخره عن العمل، أما أماني فكانت تحمل دفتراً كبيراً، وتكتب وترسم وتقلب في أوراقه.

الجميع اتفق على العودة إلى نابلس، لكن هناك شيئا خفيا يجعلهم يقررون تأجيل العودة..
إلى أن قطع هذا الصمت، صوت غادة، (نحن لنا شيء هنا وحيد وهو قلب ولدنا، لو كان لنا فرصة أن نسمع دقات قلب ولدنا في الجسد الجديد).

وقبل أن تنتهي من مشاعر الحنين، رن هاتف السيد سعد، ورد بفتور وعدم تركيز، وبصوت خافت..
وحين انتهى الحديث بالهاتف، سألت الحاجة فاطمة: من كان يحادثك؟

- هي دائرة العلاقات الاجتماعية من قسم المشفى، تدعونا لحفلة شفاء الطفل الذي نقل له القلب، في الحديقة الخلفية للمشفى..
- وهل تشارك يا ولدي في هذه الحفلة
- قاطعت غادة: لنذهب، هي هذه الفرصة التي نبحث عنها، صحيح أن الجسد جديد، لكن قلب ولدي أقوى وسوف يسعد بحضورنا الحفلة، وقد يجبر الجديد أن يحضنني كثيرا..
- يبدو أنكما ترغبان في المشاركة في الحفلة، لكن علينا أن نأخذ الهدايا والحلويات والمكسرات (السيد نصر).
- ابتسمت الحاجة فاطمة: هذا كلام جميل ومقنع سوف أصنع (صينة) وعاء كبير من حلويات (كنافة النابلسية) و(خبز الطابون) ونأخذ معنا فاكهة التين، لأنها تقوي القلب، نحن في نابلس قلوبنا قوية لأننا نأكل التين و(القطين) التين المجفف.
- اندهش ابنها نصر مما تقول: وكيف ستصنعين النابلسية في لوس أنجلس، وأيضا خبز الطابون، أما بالنسبة للتين فهو سهل يمكن أن أحضره من المتجر الكبير للفواكه والخضروات. ما رأيك يا غادة بما تقول أمي؟

- ردت: في نابلس نقوي القلوب وهنا نعطيها لغيرنا.
- وقبل أن تدخل العائلة في أجواء الحزن، قالت الحاجة فاطمة: لا تقلق من موضوع النابلسية وخبز الطابون، في الحديقة الخلفية للبيت يوجد مكان مناسب لأصنع فرنا من الطين أصنع النابلسية والطابون، لكن عليك أن تحضر لي فحما وحجارة وطين أحمر من أرضية المنتزه.
- تصنعين فرنا طينيا في الحديقة الخلفية، الشرطة ستخالفنا لأنه ممنوع إشعال النار خوفاً من اندلاع الحرائق..
- لا تقلق يا ولدي لا نحتاج ناراً عالية، النابلسية تنضج على نار هادئة وخبز الطابون على ما تبقى منها.
- وقفت غادة في المنتصف بين زوجها نصر والحاجة فاطمة: أنا سوف أحضر كل مكونات النابلسية والدقيق، لكن عليكم أن تذكروني بمكوناتها..
- أحضر معك، جبنة الماعز، والشعيرية الملونة، والسكر، والسمن البلدي، وفستق مطحون...
- جلس السيد نصر ووضع يده على رأسه، ومن أين أحضر لكم جبنة الماعز؟
- نحضر جبنة الموتزاريلا (غادة)

- وما هذه الموتزاريلا (الحاجة فاطمة)
- جبنة الماعز باللغة الإنجليزية

فضحك الجميع، ضحكات كادت تشقق سقف البيت..

كان مع العائلة ثلاثة أيام فقط قبل موعد الحفلة، فانطلقوا يجهزون كل شيء، وصنعوا الفرن دون علم الجيران، وأشعلوا النار وعملوا ما يريدون بخفة ودون إزعاج، وفي لحظات التحضير كانت تذكرت الحاجة فاطمة زوجها وهو يصنع النابلسية، ويحملها للمحل من أجل بيع الزبائن التي تنتظره بفارغ الصبر، وهي ترافقه بوعاء كبير من العجين لتجهز الخبز على ما تبقى من النار، كانت هي المسؤولة عن كل شيء وكان السيد نصر وزوجته يساعدانها.

[8]

غاب السيد نصر قبل موعد الحفل لمدة ساعتين ليحضر شيئاً يكون مع جملة الهدايا والحلويات والخبز والتين التي سترافقهم إلى الحفل، وهو الدراجة الصفراء، فهو أرسلها لمحل تصليح الدراجات وعمل ما يلزم لتعمل مرة أخرى..

وحين دخل البيت وهو يحملها صعقت غادة حين رأت هذه الدراجة، بصوت به بكاء: أين ستأخذ دراجة سعد، يبدو أنك ستتخلص منها.

- ليس الامر هكذا، لكن شعرت أن سعد لم يشبع من اللعب عليها، فقلت لعل أن يشعر بها قلبه.

وقتها خرجت الحاجة فاطمة ترتدي ثوباً مطرزاً باللون الأحمر، وشالاً أبيض مطرز على أطرافه غزال وجبال باللون الأخضر وثلاث أساور من القماش بلون العلم الفلسطيني، وأعطت غادة واحدة وابنها نصر واحد.

وقد أحضر السيد نصر سيارة كبيرة استأجرها تحمل صينة النابلسية والهدايا والدراجة، وانطلقا إلى جهة المشفى وكانت الدموع تجتاحهم كلما تقدمت السيارة إلى مكان الحفل.

وحين وصلوا باب المشفى الكبير، سألوا أحد الحراس، أين مكان حفلة نقل عملية القلب الناجحة.. دلهم الحارس إلى المكان المخصص ورافقهم ليحمل معهم الهدايا.

بدأ الحارس والسيد نصر بتنزيل الهدايا والدراجة والحلويات والأكياس، كان في مقدمة الاستقبال ديفيد وزجته سارة ومدير المشفى والطبيب الميكانيكي..

رحب مدير المشفى بهم، وشكرهم على حضورهم وتكلفتهم وقتهم لحضور الحفلة، وعرفهم بالسيد ديفيد والسيدة سارة وهما والدا الطفل الذي نقل له القلب، وكما عرف السيد نصر بأمة الحاجة فاطمة، وزوجته غادة، ودخل الجميع في الممر المؤدي لمكان الحفل..

بدأ الوضع يأخذ شيئاً من الريبة والخوف كلما تقدمت عائلة السيد نصر إلى الحفلة، فكانت أعلام إسرائيلية تملأ المكان، وهناك فتيات صغيرات يحملن نفس الأعلام وهناك صوت

مسموع من الأغاني العبرية معروفة لأي فلسطيني عاش تحت الاحتلال، وبعض شخصيات بملامس سوداء وقمصان بيضاء كأنها شخصيات دينية يهودية، وبخور وقبعات غريبة، وأشكال تدل أن عائلة السيد نصر وقعت في فخٍ كبير، وأنها أعطت قلب صغيرها سعد إلى جسد جديد هو بمثابة عدو دائم لهم..

في هذا الوقت بطؤت خطوات الحاجة فاطمة، وبدأ العرق يظهر على أصابع كفها وصار ملمسها رطباً فاستندت إلى الحائط، وتركت يدها أثرا مائيا عليه، انتبه لها نصر، وشعر أنها لا تريد أن تتقدم، فوقف بالقرب منها دون حراك، أما غادة فكانت تفتح فمها من الصدمة، لكنها تتقدم ناحية الحفلة كأن شيئا يناديها، حاول زوجها أن يمنعها من الدخول، لكنها كانت عند حافة الباب، اضطر أن يساعد أمه في المشي ويلحق بها..

من بعيد ابتسم موشي في وجوههم فصارا يمشيان ناحيته، وقبل أن يصلا قطعت سارة المسافة مرحبةً بهم، لأنها شعرت بملامح الغضب والاحمرار وأن عائلة السيد نصر تنوى فعل شيء يؤذي موشي..

انضم ديفيد إلى زوجته بنفس الشعور، وكما أن بعض الرجال ذوي المعاطف السوداء غطوا الرؤية عن موشي، حاولت غادة أن تدفعهم للوصول إليه لكن كانوا قد حملوه وصاروا يركضوا به داخل ممرات المشفى، لمحت ابتسامته من بعيد، كأن ولدها سعد يبتسم في وجهها.

دخل مدير المشفى، وقال بصوت مسموع: نشكر عائلة السيد نصر للحضور على الحفل ونتأسف من عدم مصافحتهم موشي لأنه يشعر بالتعب ولا بد أن يعود لغرفة الأكسجين، لأنه تحرك اليوم كثيرا وأكل طعاما أكثر من اللازم، وكما نشكركم على الهدايا التي جلبتموها، لكن ما هذه الدراجة الصفراء؟

اقترب السيد نصر منه وقد كان يمسك يد أمه وزوجته: هذه الدراجة الذي وقع عنها سعد، دونها لم تحصلوا على قلبه، لأنها السبب في الحادث، لكن لو عرفنا من قبل أنكم إسرائيليون لما وافقنا على هذه العملية، لقد كانت خديعة منكم، وأنت يا سيد ديفيد هل كنت تعلم أننا من فلسطين وكيف وافقت على أخذ قلب فلسطيني لولدك.

رد ديفيد: بكل صراحة في بداية الأمر لم أعلم مثلك من المتبرع، كل الذي كان يهمني أن يحيا طفلي موشي، وهذا كان اقتراح مدير المشفى، وحصلنا على ما نريد وبكل قوة سوف نحافظ عليه لو كلفنا الأمر كل قوة العالم.

غادة: أريد أن أحضنه لأسمع دقات قلب أبني سعد فأنا أميزها من بين آلاف الدقات، سمعتها طوال سنوات عمره معي أعرف من وقت الاستحمام، وقت البكاء ووقت الضحك، وقت كان يخبئ شيئا، ارجوكم أحضروه حتى أحضنه.

سارة: أنت تعلمين يا عزيزتي أن طفلك مات، والآن ولدي يشعر بتعب، وأخاف عليه حين تحضنيه أن يزداد تعبه، لكنك تبدين مرتبكة وقلقة، وأخاف أن يتأثر بذلك، لكن أعدك أن تريه مرة أخرى والأيام قادمة، وسنكون أصدقاء عائلتنا وعائلتكم، والتفتت لزوجها ديفيد وابتسمت في وجهه.

ديفيد: نعم سنكون أصدقاء ونترك كل المشاكل خلفنا فنحن أمام حياة جديدة يمكنا أن نحيا بشكل أفضل، لا داعي للعصبية والتفرقة، نحن نعيش في أمريكا بلد الجمال

والتسامح، والحب والمال، فأنا دفعت الكثير من المال، كل ما أملك في هذه العملية، وأنت يا سيد نصر لم تقبل بأخذ مقابل مالي عن قلب ولدك، فلا تلومني، أن أعطيتنا شيئاً ونحن قبلنا به...

السيد نصر: نحن لم نعلم أنك هكذا، كل الذي توقعته أنكم عائلة أمريكية، أما أن تكونوا إسرائيليين، ولو شككت في الأمر ما وافقت.

المدير: علينا جميعا تقبل الأمر، أنت ابن عائلة متعلم وإنساني الطبع، تقبلوا الأمر والمرة القادمة سنجلس معا طويلاً وتكونون أكثر هدوءً.

ردت الحاجة فاطمة بصوتٍ عالٍ: أيها الماكر، الثعلب، ماذا فعلت بنا، أنت سرقت قلب حفيدي كما سرقت أرضنا، وفجأة هجمت وحملت مجسماً به شموع وضربته ناحية عائلة ديفيد فوقع على رأس مدير المشفى وصار يصرخ والدم ينزل على وجهه، تدخل حرس المشفى وحملوا عائلة السيد نصر خارج الأسوار، وكانت الشرطة تملأ المكان.

تقدم أحد رجال الشرطة ناحية السيد نصر: وقال أنت وعائلتك مطلوبون للتحقيق لأنكم هاجمتم مدير المشفى وعنده إصابة تفضلوا اركبوا سيارة الشرطة.

تجلس الآن عائلة السيد نصر في قسم الشرطة، بسب تهمة موجه لهم بالاعتداء بالضرب والشتائم، مقدمة من إدارة المشفى بحق مديرها، وكان المحقق يحاور العائلة بكل عصبية بأن شرطة الولاية مهتمة بهذه القضية، ولا يمكن أن تنقل الصراع بين عائلة السيد نصر وعائلة السيد ديفيد من بلادهم إلى أمريكا.

وبدأت الصحافة تحصل على أخبار أولية بأن عائلة السيد ديفيد الذي يعمل مصمم أزياء للجيش هو وزوجته سارة قد حصلا على تبرع لقلب ولدهما موشي من طفل لأب وأم فلسطينيين بطريق الخديعة بعد موت صغيرهم سعد في حادث سقوط عن دراجة داخل منتزه عام، وبعض الصحف كتبت عناوين منها ندم العائلة الفلسطينية على التبرع بقلب طفلهم الميت لطفل إسرائيلي، ومنهم من بدأ يكتب المشاكل

بين الإسرائيليين والفلسطينيين انتقلت من أرضهم إلى أمريكا... إلخ.

وبدأ الرأي العام يتحرك، وبدأ المصورون ورجال السياسية والصحافة بكل أنواعها يتوافدون على مركز الشرطة.

[9]

بعد أن قدمت عائلة ديفيد الأوراق الموقعة من عائلة السيد نصر بالموافقة على التبرع بقلب طفلهما بعملية نقل لطفل آخر، للشرطة والمحكمة الأولية في الولاية، تراجع الرأي العام واعتبر أن هذه القضية هي كرم إنساني أن يتبرع أحد بقلب ميت له دون الاهتمام ماهية الجسد المتبرع له.

مكثت عائلة السيد نصر في البيت كثيراً خوفاً من نظرات الاحتقار من الجالية الفلسطينية في المكان، وقد وصلها توبيخ من العائلة في مدينة نابلس، وقد انقسمت العائلة إلى نصفين بأن نصر وأسرته وقعوا في خطأ لا يغفر لهم وعليهم أن يصلحوا خطأهم، ومنهم من كان يميل بأنهم وقعوا تحت الخديعة وهم ليس له ذنب فيما حدث.

دخلت الكثير من منظمات حقوق الإنسان لمقابلة عائلة السيد نصر، في محاولة لمساعدتها، لكن الخدمات كانت تأخذ منحى تقبل الأمر، ولو قدم شكوى في عائلة ديفيد فسوف يخسرها ويكون وجوده داخل أمريكا مقلقاً، بسبب قوة حجة الأوراق المقدمة والتي نشرت في الكثير من الصحف، وبعد نشر صور مدير المشفى الذي تلقى إصابة من الحاجة فاطمة، كانت الأمور صعبة ومقلقة، السيد نصر يمكن أن يكون خائنا في نظر أهله والجاليات العربية الموجودة داخل أمريكا، وكان يراهن على الوقت الطويل للنسيان وتقبل هذه الواقعة، وبدأت العائلة تقبل ذلك ظاهريا، إلى أن حدث شيء غريب جدا، عندما جاءت مجموعة من الشبان والفتيات من جنسيات مختلفة، لزيارة العائلة وتحدثوا في كل الأمور المتعلقة في قضية القلب، واقترحوا على العائلة أن يخطفوا الطفل موشي، فصار السيد نصر يرتجف من هذا الاقتراح، لكن غادة والحاجة فاطمة أعجبتهم الفكرة وصارتا تناقشاهم حول الاختطاف، وقد ناقشوا مع غادة والحاجة فاطمة فكرة ارسال الطفل إلى بلد خارج أمريكا، وقتها قفز نصر عن مقعده وطلب منهم مغادرة منزله، بحجة نحن لسنا أشرار،

كل الذي أريده فقط من يساعدنا لنثبت أننا لم نخنْ بلدنا حين تبرعنا بقلب ولدنا، وتريد أمي الحاجة فاطمة حين تعود لنابلس لبيتها بأن لا تلاحظ أحدا ينظر إليها نظرة تعجب، قد تموت منها، لو وصل الأمر لأبي المعتقل هناك سيكون الأمر صعباً عليه بين رفاقه في السجن، فقد يدخل في دوامة التحقيق والأمور الأمنية المرهقة على كل مسجون، وزوجتي غادة لا تقدر على أن تكمل هوايتها في الغناء وتلحين الأغاني الوطنية..

رفعت غادة يديها عن وجهها وقالت: لماذا يمنعوني من أن أحضنه؟ لماذا شعوري الآن يشبه شعورنا حين مُنعنا أن نصلي في الحرم الإبراهيمي، أو نزور القدس إلا بتصاريح الدخول، شعوري حين يكتب على بطاقات الهوية باللغة العبرية، ولا يوجد خانة للجنسية.

[10]

بدأ القلق أيضا يظهر على عائلة ديفيد، تلقوا الكثير من المكالمات التي تطالبهم بحق عائلة نصر بأن تحظى بوقت مريح للجلوس مع أبنهم، لأنهم يشعرون بأن قلب طفلهم مازال ينبض في جسد موشي، لكن العائلة كانت تشك بأن القصة ليس في الالتقاء مع صغيرهم ولكن خوفا من أن يؤذوه أو يؤثروا عليه.

ومن الزوار الذين جاؤوا، طاقم كبير من رجال إسرائيليين حملة الجنسية الأمريكية، ليقدموا أي خدمة مالية أو قوة من حماية أو سفر لأي دولة لحمايتهم من أي شيء طارئ يؤثر على حياتهم وحياة موشي بالأخص، فقد اعتقدوا أنهم أمام تجربة بشرية جديدة وهو أن يوضع قلب عربي في جسد إسرائيلي، قد نصنع آلاف من هذا النوع لنحكم العالم أكثر وأكثر.

وأخبروا عائلة ديفيد أنه بهذا القلب سيكون لنا أثر وحضارة في هذا العالم، قد تنجح هذ التجربة ونتخطى خوفنا من الإحساس المفرط لديهم وحبهم للأشياء، علينا أن نترك موشي للدولة لتكمل تعليمه وتعطيه كل الأدوات لتقوية هذا القلب ليخدمها، بالقلب نقدر أن نخاطب كل العالم.

تدخلت سارة في الحديث، حيث كانت تجلس مع والدي ديفيد اللذين يسمعان بكل متعة للحديث وحتى أنه رفع مدخل موجات الصوت لآذانهم: دولتنا تستخدم الكثير من المهجنين في الخدمات السوداء والبيضاء، قد يكون من أب أفريقي أو أم أسيوية، أو جد عربي، أو كامل التهجين، وهذان العجوزان خدما دولتنا بكل شيء حتى باعا شرفهما وهم من أصول إنجليزية.

كلامك صحيح سيدة سارة وهذا موجود ولن نستغني عنه، لكن ابنك موشي هجين جاء بالمصادفة، مطر الصيف، كالأنبياء يأتوا ليخلصوا الأرض من التعب..

وأي تعب نحن نواجه في دولتنا التي تحكم العالم الآن (السيد ديفيد) فكل شيء لنا متاح من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي.

نواجه مشكلة قد تؤرقنا كثيراً، وهي أن العالم رغم أننا نقدم له كل الخدمات إلا أننا نفقد الحب والاحترام، ندفع بقوتنا وبأموالنا ونخطط كل لحظة لنتمدد في كل شيء مثل الظلّ صرنا...

[11]

[الهروب من المكان] قررت عائلة موشي الهروب من أمريكا، والعودة إلى إسرائيل ليختفوا عن الأنظار لعدة أشهر حتى يستعيد ولدهم صحته وعافيته، ويكون بالقرب من أجواء الراحة والحياة التي صنعها والداه هناك في المصنع.

في يوم كان متفقا عليه في المحكمة للنطق لصالح لعائلة السيد نصر من أجل الحصول على موافقة لرؤية الطفل موشي والجلوس معه، لأنهم ظنوا أن هذا التبرع من ناحية إنسانية، وكل أملهم أن توافق المحكمة على رؤيته مرة كل أسبوع، وهذا الطلب كان من ناحية السيدة غادة وكان الأمل كبيرا بالموافقة على ذلك.

لكن لم تحضر عائلة موشي وكان محامي العائلة يحضر وحده في قاعة المحكمة، وكانت عائلة السيد نصر تجلس

في الكراسي المقابلة للقاضي والقاعة مكتظة ببعض العرب الذين يعشون في أمريكا، وعشرات الصحفيين والكاميرات المنصوبة في القاعة.

وحين حضر القاضي، وبدأ مراسيم الجلسة، شاهد وجود عائلة السيد نصر ، أما عائلة السيد مردخاي لم تكن موجودة، فسأل المحامي عنهم؟ فتقدم المحامي ناحيته، وهمس في أذن القاضي، بدأت علامات الدهشة على وجهه، وبدأ الصوت يعلو والهمس والكلام والصور تلتقط في القاعة، أشار القاضي بالصمت على الجميع..

وقال: نحن في بلد نحترم الجميع ولا نفرق بين أحد وآخر ، وقد تقدمت عائلة السيد نصر وخاصة زوجته السيدة غادة بطلب غريب جدا، وهو فترة حضانة لطفل موشي الذي أخذ قلب ولدهم المتوفي، وهذا طلب كبير لم يرد في قانون وقضايا دولتنا، ولكن لأن القضية في بدايتها كانت موضوعا إنسانيا بعيداً عن كل الأجناس والجنسيات والأديان، فهذا الأمر حطم كل الحدود من جغرافيا وتاريخ، وأنا بصفتي الشخصية كنت أعتبر هذه القضية صفحة جديدة بين شعبين

يعيشان تحت غيوم سوداء لعشرات السنوات دون الوصول إلى نقطة تقاطع، رغم محاولات العالم فرض اتفاقيات وتفاهمات بين الطرفين لكن كلها لم تزد المشكلة بينهم إلا سوءاً، بكل ثقافات العالم إن مشكلتهم كبيرة جدا، وتحتاج إلى سنوات طويلة لتعيش الأجيال القادمة من الطرفين بحياة تناسبهم بعيدة عن التعب والركض خلف الأحلام التي صنعت لهم، كلاهم له الحق بالدفاع عن ما يملك أو ما صنع من تاريخ أو جغرافيا، أحدهم يملك القوة والآخر يملك الحق، وكانت هناك فرصة مهمة أن نجمع الجسد والقوة من طرف عائلة مردخاي بالطرف الآخر وهو القلب والحق ممثلاً بعائلة السيد نصر، لكن يبدو أن عدم وجود عائلة مردخاي اليوم يدل على الخوف من المستقبل، وقد أخبرني محاميهم بأنهم سافروا ولن يعودوا لأمريكا، ولن أخبر أحد أين سافروا ولن ننطق في هذه القضية الآن حتى تعود العائلة عندنا، وأوجه رسالتي إلى عائلة السيد نصر وخاصة السيدة غادة، الأمر صعب جدا ولا يوجد قانون يجبر عائلة مردخاي الموافقة على ما تريدون من طلب، ولكن يمكنك الوصول إلى مكان الطفل موشي، لتتعرفي عليه وتتقربي منه

وتصنعي علاقة جديدة بالحب مع عائلة أخرى، علك تحظين بسماع صوت دقات قلب ولدك مرة أخرى، لكن لا يمكن أن أخبركم مكان عائلة السيد مردخاي لأن المحامي رفض أن يخبرني وهذا حقهم، ولكنهم في نظري مذنبون بعدم حضورهم اليوم....

فقام القاضي وقامت القاعة، والصحافة هجمت على المحامي لتسأله: عن مكان هروب الطفل موشي، لكن الشرطة أخذته من بين الحضور وأخرجته من القاعة.
عائلة السيد نصر ظلت جالسة في مكانها وكأن على رأسها الطير، لم تر سوى دموع غادة التي تنهار من المطر، وتجاعيد وجه الحاجة فاطمة وكأنها تريد أن تشغل النار في المحكمة، وتقدم أحد الصحفيين ناحيتهم، وقد بدأ بالسؤال عما سيفعلونه بعد هروب عائلة موشي وعدم حضورهم، لم يرد أحد على السؤال، فقال: يبدو أنكم تشعرون بالضعف أمام هذا الأمر، فغضب السيد نصر من كلمة ضعف وركل الصحفي بقدمه وأسقطه على الأرض وانسحب من المكان، لكن الحاجة فاطمة وقعت على أحد الكراسي في القاعة

وقالت بصوت عالٍ نحن لسنا ضعفاء، سنعيد حقنا وسنحصل على تربية قلب ولدنا سعد مرة أخرى، وقبل أن تنزل صفعت الصحفي على وجهه وقالت له: لا تقل مرة أخرى أننا ضعفاء.

وصلت الرسالة للجميع بأن عائلة السيد نصر لن تترك حقها في رؤية وسماع دقات قلب ولدهم سعد مرة أخرى، وأنها سوف تستخدم كل الوسائل للحصول على ما تريد...

[12]

مرت فترة صمت طويلة حتى النوافذ لم تفتح كثيراً في بيت السيد نصر ، ولم يلتفوا حول طاولة الطعام معا، وقل الكلام بينهم، كأنهم في فترة ثبات، لا حركة ولا شيء يحدث يستدعي ردة فعل، كل الأشياء باردة حولهم رغم أن الجو كان صيفا، الحاجة فاطمة اكتفت بغناء بعض الأغاني القديمة، وتقليب ألبوم صور زوجها وصور حارتهم في مدينة نابلس، وكانت ترتدي منديلا مزركشا قصيرا، فيظهر قرطها الذهبي، عبارة عن عنقود عنب وشعرها مصبوغ بحناء (بلدية) كانت تجفف ورق شجرة الحناء وتهرسها ناعماً مع قيل من الماء، تصبح معجونا تضعه على شعرها، وبعد نصف ساعة تغسله عدة مرات فيصبح شعرها برتقاليا قريبا للحمرة، أما غادة فكانت تجلس وتقلب ورقا قديما من دفاتر

سعد، وتقص بعض الكلمات والحروف والرسمات وتصنع ألبوما على شكل قلب كأنه يعكس حياة (ذكريات) ابنها..

أما سيد نصر يحاول مراراً أن يفتح كتب المحاضرات في الفيزياء ليحضر نفسه للعودة للجامعة لأن إجازته انتهت ودخل في مرحلة الخطر من كثرة الغياب، فكان يخرج ربطات العنق ويعيد ربطها مرة أخرى ويمسح الغبار والعوالق من سترات البدل التي تليق به كمدرس في الجامعة.. بكل صراحة بعد حادثة المحكمة تشعر أن هذه العائلة تحولت إلى روبوتات لا تصدر أي شيء إلا عند الطلب، الحركة محدودة وجسدهم أخذ شكل الانحناء..

مرت فترة على هذا الروتين في البيت، إلا حين رن هاتف السيد نصر، وكان من أحد التلاميذ العرب، شادي الذي يعمل بعد الدراسة في توصيل طلبات من السوبر ماركت إلى البيوت، وهو من الأردن لكن جده من الضفة الغربية وقد نزح منها وذهب إلى الأردن (معسكر الوحدات) وعمل في مجال البناء، وأنشأ عائلة كبيرة حصلت على إقامات

وجنسيات أردنية، وجاء شادي إلى أمريكا لتعلم الاتصال والكمبيوتر، ويعمل من وقت إلى آخر بعد الدراسة، فطلب من السيد نصر على الهاتف مقابلته بشكل سري وضروي.

فدعاه إلى بيته ليشربا القهوة معاً، لأن السيد نصر يشعر بإحباط كبير ولا يريد الخروج من البيت، يريد أن يكون بالقرب من والدته الحاجة فاطمة وزوجته التي تسرح كثيرا وتبكي طوال الوقت.

وبعد ساعة حضر شادي إلى المنزل، واستقبله ودخل وسلم على الحاجة وطرح التحية على غادة، وجلسا في صالون البيت، وبعد أن شرب القهوة، قال يا أستاذ نصر: أن تعلم أنني أدرس الاتصال والكمبيوتر وأنت تدرسني الفيزياء الكميّة في الجامعة، وأنا سمعت عن موضوع الخدعة الكبيرة التي حدثت معك في قصة نقل القلب، وقد حضرت يوم المحكمة، فقررت أن أقدم لكم خدمة لأننا من نفس الدم والأرض، فقمت بشيء مخالف للقانون ولا أريد لأحد أن يعرف، فقد أحاكم أو أتعرض للحبس والطرد أفقد دراستي.

وقتها اعتدلت غادة والحاجة فاطمة، اقترين من شادي ليسمعن ماذا صنع؟ أما السيد نصر فقد تغيرت ملامحه إلى العبوس خوفاً من الأمر الذي فعله ضد القانون.

قالت الحاجة فاطمة: تكلم يا أبني لا تخف، سرك في بير.

- أنا حصلت على رقم هاتف محامي عائلة ديفيد عن طريق زميلتي التي تعمل كاتبة في المحكمة، وقد راقبت مكالماته.
- اعتدل السيد نصر، هذا خطر عليك ويهدد مستقبلك الدراسي!
- هناك لحظات يا أستاذ نصر لو ربحتها كأنك تربح الدنيا وما فيها، لا تقلق الشيء مسيطر عليه وصعب أن يعرفوا ما قمت به.
- قطعت غادة الحديث المهم ما هو الشيء التي تريد بلاغنا به بعد عملية التنصت.
- أنا عرفت إلى أين هربت عائلة ديفيد.
- وقفت الحاجة على أطراف أصابعها: هيا قل يا ولدي، لتبرد نارنا التي اشتعلت منذ أن أخذو قلب طفلنا بالخدعة، كأنهم أعادوا احتلالنا مرة أخرى.

- سمعتهم في حديث طويل، أنهم موجودون في مكان يدعى يتسهار في فلسطين المحتلة، وقد بحثت عن هذا الاسم في محركات البحث، ووجدت أنها مستوطنة تقع في شمال الضفة الغربية، على بعد 20.5 كيلومترًا من الخط الأخضر، في منطقة سلسلة جبال نابلس على بعد حوالي 10 كم جنوب غرب مدينة نابلس. تعد واحدة من المستوطنات الإسرائيلية التي تطوق مدينة نابلس، حيث تم بناؤها على جبل سلمان الفارسي.

لم يكمل شادي سرد معلومات وشعر أن عائلة السيد نصر يعرفون هذا المكان، وكانت وجوههم يقطر منها الغضب.

- بصوت به قلق قالت غادة: نحن نعيش هناك بالقرب من هذا المكان اللعين، هذا حرمنا من أرضنا وكم من شبابنا ونسائنا ماتوا بالقرب من أسلاكها الشائكة.

- لكن عليَ أن أخبركم أمرا آخر، أنا قلت لكم أن جدّي جاء من الضفة الغربية وفي عام 1980 مات جدي لكن قبل أن يموت اتصل به أحد أخوته وقال إن الإسرائيليين أخذوا أرضه وتركوا مائة متر مربع مزروع فيها ثلاث شجرات تين وخمس شجرات زيتون وشجرة ليمون، هذا ما أخبره جدي لأبي، ومن

بعد ذلك مرض جدي ومات وكان يريد أن يدفن هناك، لكن أبي وأعمامي لم يقدروا، إذا قدر لكم العودة إلى هناك أكتبوا على أحد الصخور من هنا خرجنا وإلى هنا سوف نعود. يا ليت لي أن أزرو نابلس أرض جدي، وأساعدك يا سيدة غادة لضم قلب صغيرك لتسمعي دقاته مرة أخرى...

- يبدو أننا سنحمل حلمين، حلم أن نسمع دقات قلب ولدنا مرة أخرى، وحلم جدك يا شادي.
- هل تعلم يا شادي إنها الفترة الوحيدة الحقيقية التي عشتها، ثم بدأت تظهر الثقوب في روحي ويتسرب منها وإليها الفراغ. في طفولتي بعت كل شيء، ملاقط غسيل، ليف، ذرة مسلوقة، علكة، حلوى، وبالونات، كنت أشتري سحبة البالونات وأذهب للبيت وأقلب على ضوء شمعة كرتونة الأرقام للعثور على رقم عشرة وإزالته، فهو البالون الاكبر، وإن خرج لأحدهم لا أحد سيغامر بالشراء. مرة اشتريت سحبة بالونات جديدة وفي طريق عودتي للبيت استوقفني أحدهم واشترى بالونا، سحب الرقم وإذ به يكسب الرقم عشرة، انهار عالمي لحظتها. في قريتي كنت استمع للقصص الفدائية والشتات والفلاحين ومواسمهم، شاركت جدي في مواسم

حصد التين والزيتون واللوز وتحميلها على الحمار، الدراس وتنقية الحبوب في الغربال، شاركت في جلسات جماعية لفرط الملوخية وما تخللها من قصص، كانت تفتنني قلائد البامية المجففة على الجدران، والبندورة المجففة على السطوح، وحبال الثوم، الزيتون المكدس، كنت أشعر أننا بخير ومستعدون للعالم بشكل جيد. رؤية القبور في قريتي في أحواش البيوت كانت ترعبني، كأنهم لا يعترفون بالموت، وعلى الميت أيضا أن يقيم معهم. حياتنا ليست مثالية تماما كما تشعر أنك في قريتك في الوقت الذي تعيش فيه في أمريكا، لدينا هنا عمل وهموم يومية، يرى ما يصوره بأنه اقتناص لحظات للحياة، عليك كل يوم ممارسة الحياة رغم الحزن الذي زارنا بموت ولدنا، هذا العالم مؤلم لماذا علينا نحن أن نعيش في احتلال وحين نريد أن نتنفس الحرية بمكان آخر يلحقون بنا ويأخذون ذكرياتنا وينسبوها لهم.

- قال شادي: أتقصد أن قلب طفلك هي ذكرياتك وهم سرقوها منك وصار جزءا من حياتهم.

- أظن لا شيء عبثي، لا شيء بلا معنى في هذا العالم، هناك عوالم موازية لعالمنا البشري لا تقل حركة وعمقا عن عالمنا البشري، بل ربما تتفوق على عالمنا.
- ردت الحاجة فاطمة، أذكره الله يا ولدي نصر، كل الأشياء بيد الله وهذه حكمته، أنا أكبر منك هم، فأنا ممنوع أن أرى والدك وكان حزني عادياً، لكن بموت حفيدي وسرقة قلبه صرت شجرة من حزن جذورها أعمق من كل الجذور.

بعد لقاء شادي والمعلومات التي سردها عادت الابتسامة والتفاؤل مرة أخرى للبيت، وهناك همة كبيرة أن ينهي السيد نصر علاقته بالجامعة وغادة تؤجل حلمها في الغناء والموسيقى وكما أن الحاجة فاطمة كانت كل يوم تهم بالعودة إلى نابلس.

[13]

مرت السنوات على كلا العائلتين، لكن مستوى كان القلق عالياً من عائلة ديفيد على موشي، فقد أصدرت لجنة الأمن العليا ليتسهار قرارا بمنع أي عامل عربي فلسطيني من الدخول للعمل داخلها، بسبب أمني، ومن كثرة المشاكل والمظاهرات التي تحدث من الفلسطينيين الذين سلبت أراضيهم لبناء يتسهار، رغم الاحتياج الكبير للعمال، لأنها تمتاز بالمباني الكبيرة، وجزء كبير منها للصناعة والجزء الأكبر لتربية طائر الحبش الأبيض، وهو مصدر لحمي لصناعة المارتديلا الإسرائيلية المدخنة، فبدلوا العامل الفلسطيني بالعامل الفلبيني، لكن أغلب سكان المستعمرة كان يخافون منهم لأن الفلبينيين يأكلون الكلاب والقطط، وتعتبر

وجبة مهمة عندهم، صار سكان يتسهار يفقدون كلابهم وقططهم غالية الثمن والغالية عليهم.

وفي هذه الفترة تبنت عائلة ديفيد بنوتة صغيرة، عن طريق مؤسسة (أنا وحدي) الإسرائيلية التي تهتم بالأطفال الذين دون أب أو أم..

وكان الهدف واضحاً، ليشارك موشي في الجيش، وهذا طلب من العقل المدبر الكبير الذي يخطط لموشي، يبدو أنهم يريدونه أن يكون في الجيش لشيء كبير وهام، إنه يملك قلبا عربيا وجسدا إسرائيليا، وهذا سيفيدهم بما يخططون له من علاقات بما حولهم.

وفي الجهة الأخرى الأكثر حزناً مما حدث معهم من خدعة بسرقة قلب طفلهم، ووضعه في جسد عدو دائم لهم. خلال السنوات التي مرت عادت عائلة السيد نصر إلى موطنها الأصلي في نابلس، وقد عانت كثيرا من نظرات من حولها، بعض الناس قاطعوا العائلة على ما فعلته بقلب طفلها..

لكن السيد نصر كان حريصاً على أن يتعاطف من حوله معه ويكونوا سنداً له ولعائلته.

والشيء الأكثر جمالا أنه حصل على وظيفة مدرس فيزياء ويعمل مع أسرته في صناعة الكنافة النابلسية بعد انتهاء الدوام، لكن غادة كانت غارقة في عالم الكتابة والموسيقى، وصارت تجمع الأغاني القديمة التراثية وتغني بعضها وتسجلها بصوتها.

لم أخبركم بأن العائلة ذهبت على أرض جدّ شادي الملاصقة ليتسهار، ورمموا الغرفة الصغيرة ونظفوا الأعشاب ووصلوا الماء وزرعوا أحواض من الورد والبقوليات، والحاجة فاطمة وضعت شاهدين لقبرين وكتبت على أحدهما (جدّ شادي الأردني) والآخر (حفيدي سعد دون قلب).

[14]

الأن أنا نضجت وعرفت سرّ هروب عائلتي عن كل التفاصيل، مصادفة ودون قصد عرفت أن داخل قفصي الصدري قلباً ينبض، وهو لطفل فلسطيني، صرتُ شيئاً جديداً، جسدا أبيض نحيفا بشعر أشقر منكوش، لكن داخلي قلب ينبض بطفولة لم أعشها، صرت أميل للركض خلف القطط، أطرح التحية دون سبب على أي أحد، فضولي لأبعد الحدود، لا أتبع قاعدة في العيش، رغم وجود كل شيء حولي، أُحب أن أصنع الأشياء بنفسي، لا أرمي حذائي الممزق بل أصلحه بيدي، رغم أن عائلتي تستطيع أن تجلب لي عشرات الأحذية، لا أميل للطعام الجاهز وخاصة المعلبات، أصنع طعامي بيدي، يوجد ملعب لكرة القدم معشب واسع خلف بيتنا لكن لم أشارك أحدا باللعب لأني لا أحب الوقت المحدد للعب ولا قوانين اللعبة، يبدو أني ضد

موضوع الحدود، والآن الذي يتحكم بي وبتصرفاتي المعنوية هذا القلب، أنا معذور جدا، أعيش في يتسهار بالجسد لكن أنا دائما أقفز خارج الأسوار، أحب كل شيء خارج المخطط له، لا أهتم للوقت...

عقلي مرهق فهو يتعامل مع صفات الجسد وصفات القلب، يبدو أني مجنون كما هو واضح لما حولي، فأنا أتحدث كثيرا مع نفسي، ذهبت للطبيب النفسي لكن كان رده: عدم التعاطي مع الشيء الجديد وعليك استحضار الماضي والتعايش مع من حولك.

وحين أمشي وحدي أشعر أن ظلي مثقوب من المنتصف كأن شيئاً ناقصاً في ظلي، وفجأة يظهر أمامي قلبي كبيراً كغيمة تغطي الرؤية، وأينما التفتُّ لا أري سواه، أحاول أن أركض منه، لكن لا جدوى، هل يوجد من يستطيع الهرب من ظله؟ أقف صامتاً فيتشكل ظل القلب بما يشبهني ويتحدث معي.

- نريد أسرة خاصة بنا

- أنا عندي أبي ديفيد يصنع ملابس وأمي سارة ترسم بالألوان ولها لوحات كبيرة تشبهني، وجدّي وجدّتي جاؤوا من بعيد وأخذوا بيتا بالقرب منا
- لكن أنا أين عائلتي؟
- لا أعلم أنت تشبه الظل على شكل قلب الآن، وهل للظلال عائلة؟
- دعنا من موضوع العائلة.
- لماذا لم تخبرني أن الرمال والحصى هنا مقززة؟ ولا يمكننا اللعب بها، فأنا أجيد اللعب بهما، أحفر حفر صغيرة بها وأحضر طابة جلدية سميكة، ويكون الأطفال حول الحفرة، ونلقى بالطابة وحين تسقط الطابة في الحفرة التي سميت باسمك، تمسكها وتضرب من حولك بها، والذي يفوز من لا يجعل الطابة تصيب وجهه..
- يوجد خلف بيتنا رمال جديد صفراء، يمكنك أن تلعب بها كما تشاء.
- لو وجدنا الرمال والحصى كيف نجد الأطفال لنلعب معهم.
- أنت ظل الآن يمكنك الذهاب أينما تريد وتلعب، المهم أن تذهب عن وجهي.

- لا يمكنني تركك، فجسدك يحتاجني أكثر من احتياجي لك.
- هل تسمي هذه ملابس؟!؟
- أنا لا أهتم بوضع الملابس.
- ملابسك ناعمة ولا تخدمك في الركض ولا تسلق جدران المدرسة، وسوف تتمزق من المراجيح الصدئة التي تحبها، عليك دائما ارتداء ملابس قوية ولها جيوب كبيرة، قد تضع بها الحجارة الصغيرة المدببة، وبعض الضفادع الخضراء.
- ضفادع وحجارة، ماذا تقول؟
- الضفادع لتخيف بها فتيات المدرسة، والمعلمة السمينة التي تأكل خبزنا، والحجارة تستخدمها كثيرا لأمرين، أولهم أن ترمي بها على ثمار الجوافة والبلح عند البيارة البعيدة، والثاني على الجنود الموجودين عند الحاجز الذي يمنعنا من الوصول للمدرسة.
- لماذا عليّ أن أكون شريراً؟
- الشر ثقافة مع الأشرار!
- ابتسم، ابتسم، ابتسم أيها الظل، لماذا تشعر بالجميع يضايقونك؟ أنا الأن أبدأ الكلام معك وأسألك؟

- أنت الذي لا تفعل ما أحب، أنا ضيفك الأزلي، وإن عشنا سوف نعيش معاً إلى وقت الموت، أنت كنت ميتاً وأنا جئت أنبض داخلك.
- لا تنسى أنك أنت الميت في بداية الأمر، هذا ما قاله لي جدّي، حين سألته عنك، قال: كنت موجود في جسد طفل ميت.
- أوه، لا، أنا محاصر في هذا المستنقع ولا أعرف كيف أزحف خارجه، لو كنت مكانك وعندي أقدام وأيدي لزحفت خارج هذا المكان، كل ما حولك ملون وجدران جميلة وبوابات من خشب بني قوي ونوافذ ضد الرصاص، كأنك تعيش داخل معركة لم تحدث أبدا، رجالكم تحمل البنادق دائماً، ونساؤكم عبوسات رغم جمالهن، وصغاركم لا يركضون خارج الأسوار، ولا تطرحون التحية على بعضكم، تجلسون في البيوت كثيراً، وتأكلون ما هو موجود في الثلاجة، وأسماؤكم كلها لها دليل من الكتب الدينية.
- الآن هل ترغب في غسل شعرك بالشامبو، فنحن لا نخرج إلا ونسرح شعرنا رغم أننا لا نبعد مسافات بعيدة عن البيت، المدرسة قريبة جدا، وبيت الأقارب قريب، محل بيع الحلويات

والسكاكر قريب، والفرن القديم وقصصه يمكنك أن تسمعها من شبابيك بيتك، رغم قصر المسافات إلا أننا دائما نظن أننا لن نعود باكرا إلى البيوت، فالمفاجآت دائما ترافقنا، لذلك لا نعطى لأحد ميعاداً للزيارة، نعتمد على المصادفة في حياتنا، لابد أن يكون شعرنا مسرحاً وجميلاً لأننا ندقق النظر ببعضنا البعض، لأن رحيل أحدنا وارد من الكتلة الإسمنتية التي تحاصرنا ويعلوها جنود ببنادق قناصة تصطاد فرحنا وحزننا دون موعد.

- هل تعلم أننا أحضرنا الدراجة الصفراء إلى هنا، وهي موجودة في قبو البيت مع أشياء كثيرة لا تستعملها عائلتنا، وننتظر نهاية السنة العبرية، لنخرجها إلى القمامة.
- لماذا لا تجرب أن تخرجها من القبو، وتركبها وتسرح شعرك وتلبس ثياب خشنة ولها جيوب كبيرة، قد تقود الدراجة لمكان أفضل من هذا، إلى المصادفة، إلا أشياء ترضي قلبك بها.
- تقصد ترضيك أنت أيها القلب.
- وصلت رسالة لتلحق بالتجنيد الإجباري في الجيش، كنت وحيدا مثلي لكن أباك ديفيد وأمك تبنيا طفلة صغيرة، وعليك الذهاب للجيش والتدريب.

- هذا قانون لخدمة دولتنا، ورجال الدين في يتسهار قالوا لي: بعد أن تتدرب في الجيش سيكون لك مستقبل باهر في دولتنا.
- هل ستطلق الرصاص وتركض خلف الأطفال الذين يحملون الحجارة والضفادع في جيوبهم، وأنت لك قلب يشبه قلوبهم.
- لا، سأعمل مع أبي في المصنع وأساعد أمي في الرسم، وأساعد جدّي وجدّتي في بناء معبد جديد.
- هل ستدخل المعبد بقلبك الجديد.
- لم يعد جديد إنه ينبض لأكثر من خمس سنوات، بدأ ينبض وأنا في سن العاشرة، ومن أجلك اختبأت سنوات في البيت، وتعلمت كل فنون الدفاع عن النفس، لأن أمي تشعر بأني ذات يوم سأُختطف من جيران يتسهار، ويخلعون قلبي.
- أريد أن أسألك يا قلب: من أين تعلم كل ما يحبه الأطفال والفتيان الذين يعشون خارج يتسهار، وأنت عشت لمدة عشرة أعوام في أمريكا حتى حادثة موت جسدك.
- كان أبي وأمي وجدتي يزورون بلدتهم كثيرا، ويكفي قصص أبي وأمي عن طفولتهما، ولا أريد أن أخبرك عن جدتي فاطمة التي روت لي كل القصص والحكايات، وصنعت لي

عشرات الأكلات النابلسية، وحكت لي عن جدّي صالح وعن دكانه الذي يبيع فيه النابلسية.

- أريد أن أقول لك أنني أكلتها قبل خمس سنوات حين حضرت عائلتكم إلى المشفى وصار سوء التفاهم بين عائلتي وعائلتك، إحدى الممرضات الجزائريات فتحت علبة الحلويات وقالت بصوت عالٍ: ما أجمل رائحتها، ونظرت إليّ وأعطتني قطعة منها، وأكلتها قبل أن تأتي امي سارة وتعلم بما فعلت، كانت جميلة وعندي رغبة أن أتذوقها مرة أخرى.

[15]

تمر التفاصيل بثقلها على موشي، كأنه غيمتان تمطران على كوخ صغير من القش والطين مليء بالثقوب، سيغرق، والمياه ستخرج من النوافذ، هو الآن يحمل حياتين، ويتحرك في مساحة لا تتغير وحين يتجرأ في المشي يصل إلى أرض جدّ شادي الملاصقة ليتسهار...

كان يصل إلى الأرض ليلا، في النهار تكون الأرض لعائلة السيد نصر، وحين يحل الليل يجبرهم جنود المراقبة على المغادرة لدواعٍ أمنية، وهذا القرار جاء بعد قصتين لتسلل الشباب داخل المستعمرة والقيام بإطلاق النار على الجنود، ومنها قصة الشاب أحمد سعيد الذي حفر نفقاً صغيراً لمسافة خمسة أمتار أسفل السياج ودخل وهو يحمل بندقية

كلاشنكوف وحدث اشتباك مسلح بينه وبين الجنود استمر لمدة خمس ساعات.

وقتها سمع السكان القريبون صوت الرصاص والقنابل ورأوا القنابل المضيئة في سماء نابلس، وفي الصباح بدأت الأخبار تنتشر عن إصابات وقتلى، وبعد ثلاثة أيام سُلمت جثة الشاب أحمد سعيد إلى أهله، ودفن في مقبرة الشهداء غرب نابلس، وزاد الاحتقان في المنطقة، مما دفع الجنود بدباباتهم وأسلحتهم لاقتحام المخيم وترويع الناس، وقد أُسر العشرات من الشباب وهُدم بيت أحمد سعيد وترك المخيم حزيناً لمدة طويلة.

بدأ الهجوم المتبادل بين سكان المخيم وجنود يتسهار (المستعمرة)، ومن أهم هذه القصص التي تركت أثرا عند الجميع، حين أقدم الشاب حسن طوبار باستئجار عربة وحمار ووضع عليها خضروات وفواكه وتقدم ناحية الحاجز الفاصل قبل الوصول لبوابة المستعمرة وفجر الحمار ونفسه في الحاجز، ومن وقتها صار الجنود يخافون من أي حمار يمرّ بالقرب منهم.

وليرضي موشي قلبه الذي ينبض داخله، كان يتسلل في الصباح ويتجول داخل المخيم، وليرضي جسده كان في الليل يحاول أن يكون يقظا خوفا من تسللٍ إلى يتسهار من أحد شباب المخيم.

وفي إحدى الليالي كان موشي يجلس عند عتبة بيته، شاهد شابين ليسا من جيرانه، عرف من ملامحهما أنهما من المخيم، فأخذ يستعد للهروب أو الدفاع عن نفسه عند محاولتهم الهجوم.

كان واضحاً بأن الشابين لا يريدان المواجهة، فظّل يراقبهما حتى اقتربا من مزرعة طيور الحبش، ففتحا باب المزرعة وكان أحدهما يحمل سكيناً، فكان يذبح الحبشة ويضعها في الكيس، وصل لخمسة طيور كبيرة حتى امتلأ الكيس، فصارا يجران الكيس حتى وصلا إلى الفتحة التي دخلا منها.

كان مسرورا بما رأي وكاد يقهقه من السعادة، وكان قلبه يرقص داخل قفصه الصدري، فجأة ظهر ظل القلب، فتنهد موشي: أنت مرة أخرى، كنت سعيدا وترقص حين سرق الشبان الحبش.

- أريد أن أسألك: لماذا ذبحا الحبش قبل أن يسرقاه؟
- لا أعلم!
- إن أردت أن تسرق شيئاً عليك إنهاء حياته، حتى تقدر على حمله أينما شئت، لو سرقه وهو حي سيظل يقاوم.
- وماذا عليّ أن أتعلم من ذلك.
- يتسهار سرقت بيوتنا قبل أن تقتلنا ولذلك نحن نقاوم، ولن يقدر أحد على حملنا إلى حيث يريد.
- عزيزي الظلّ، أنت تفتح معي أفكار وتوسوس لي أشياء لا يمكنني أن أعالجها، هل تعلم أن هناك ثقوباً في الملابس لا يمكن لخياط إصلاحها؟ فعلى صاحبها القناعة بذلك وارتدائها أو التخلي عنها.
- نحن نصلحها بيدنا ولا نهتم بشكل الملابس المهم ألا نخسرها بسرعة.
- أريد أن أقول لك شيئاً بعيدا عن الثقوب، ماذا لو سقط على الملابس القليل من سائل الكلور الذي يترك بقعاً فيها لا تُعالج.
- لا جواب عندي.

- الذي أريد أن أقوله لك هناك أشياء تبقى كما هي وعلينا الرضى بها، لنصل لحل يناسب الجميع.
- تقصد أننا لا يمكن أن نعاقب سائل الكلور على فعلته ولا التخلي عن الملابس وقت وقوع الحدث.

قطع تخيلات موشي مع الظّل جمع من الرجال يحملون بنادق من نوع (أم 16) ودون تحية: هل رأيت أحد بالقرب من مزرعة طيور الحبش.

[عليك ذبح الأشياء التي تسرقها، حتى لا تظل تقاوم]

- هل عدت لتهذي مرة أخرى يا موشي.
- لا.. أنا بخير
- غدا عليك الذهاب لمعسكر الجيش، غدا أول يوم لك في الخدمة الإجبارية في الجيش، لا تتأخر أو تعتذر دون سبب، أنت تعلم أنهم يهتمون لأمرك، فوضعك الصحي والنفسي جيدان حسب تقارير المراقبة عنك. (الذي يتحدث هو مسؤول الأمن في يتسهار).

[قبل أن يذهب إلى خدمة الجيش، أراد موشي أن ينفذ فكرة البيت الكبير، الذي يجمع فيه العائلتين، وفي رحلة البحث والإقناع كان يرافقه القلب في كل اللحظات، كان يريد بهذه

الرحلة أن ينتصر الجسد والقلب معاً، وإذا فشل لا يلوم القلب الجسد أو الجسد يلوم القلب، في هذه اللحظة كان عليه إقناع سبعة أشخاص، كل شخص كأنه قارة وحده، ولكل قارة تاريخ وجغرافيا ولغة وطيور وجبال وشوارع وثقافة، أن تجمع القارات السبع في جغرافيا الإنسان وأن تغني وتفرح وترقص على وتر واحد، يبدو أن عملة الإقناع أن يجتمعوا في مكان واحد، كأنك تجر قطاراً طويلاً من سكة حديد وتحضره إلى بيتك، أو تأخذ فيلا ضخما إلى بيتك الصغير، كلما فكر موشي مع قلبه في صعوبة هذه الرحلة يكاد يتراجع، لكنه كان يشجع نفسه، وكان عليه أن يختار ملابس لدخوله المخيم، وهذا سهل، لتبدو كأي واحد من المخيم ببعض التغيير على الشكل في ارتداء الملابس، مثلاً عليك إغلاق الزر العلوي للقميص، وانتعال أحذية بسيطة جداً يظهر عليها الغبار، وتكون متأخرا في الموضة، والاهتمام بأن يكون شعرك مبللاً بالماء، وتضع عطر الكولونيا، قد تبدو بعمر خمسة عشر إنك منهم بالجسد، لكن المشكلة الكبيرة في عائلة السيد ديفيد، كيف يغير من قلبه ليناسب رحلة الإقناع لهم، فاتفق مع القلب أن لا يتدخل في أي حوار في

ذلك الوقت، وضع خطته أن يبدأ بإقناع الحاجة فاطمة، لأنها تعتبر الأهم في تلك العائلة، ومن ثم ينطلق لغادة ومن ثم إلى السيد نصر، كان عليه أن يبدأ بتغير شكله لينطلق في إقناع عائلة السيد نصر في فكرته، فسرق بعض الملابس لأحد العمال من غرفة الغيار ولبسها فظهر أنه أحد العمال، فخرج من باب يتسهار إلى المخيم، وأجل فكرة تغير القلب بعد أن ينجح في نصف المهمة الأولى، كأن هراوات تسقط على رأسه في هذه اللحظة ولا يقدر أن يحمى نفسه].

[16]

صار يشبه سكان المخيم، وركض بسرعة ليلحق بطرف الشارع المؤدي لبيت الحاجة فاطمة، وجد مجموعة من الجنود يحملون سلاحاً طويلاً ويضعون خوذا على رؤوسهم، ويحتمون بكتلة إسمنتية مربعة طويلة وتتساقط عليهم عشرات الحجارة، حين يسقط الحجر بالقرب منهم يصدر صوتاً قريب لفرقعة الأصابع وحين يتكسر الحجر الواحد ليصنع غيمة من حصى صغيرة يصل لكل جندي نصيبه من الألم، وقتها يطلقون قنابل الغاز والعيارات المطاطية ناحية المخيم.

صرخ أحد الجنود على موشي، شاكاً أنه من الذين يرمون الحجارة عليهم، فهم الجنود ليلحقوا به، ركض موشي بقوة

إلى مدخل المخيم وخلفه عشرات الطلقات من المطاط، قنبلة غاز انفجرت وصنعت ضباب أبيض ابتلع الرؤية.
وصل عند المدخل فوجد عشرات الشباب والأطفال والسيدات يحملون الحجارة ويلقونها تجاه الجنود، وقتها تراجع الجنود.

تقدم أحد الشباب ناحيته ومدّ يده ليصافحه: أنت سريع كاد الجنود يأن مسكوا بك، يبدو أنك غريب من هنا..
تلعثم موشي بالرد، فشعر بوخز في قلبه، (القلب يتكلم): أنا جئت لزيارة الحاجة فاطمة، أبي أرسلني لها، فأبي معتقل مع زوجها الحاج صالح، لم يكمل حديثه إلا وصرخت إحدى الفتيات بصوت عالٍ: اهربوا الجنود يركضون ناحيتكم وسيارتهم تتحرك بسرعة، اهربوا، اهربوا.
هرب الجميع ولم يتركوا سوى الحصى والحجارة وإطار سيارة محترق، وظل موشي يقف دون حركة، مرة أخرى صار وخز في القلب، فركض معهم إلى مسافة تبعد عن الجنود.

عاد الشاب مرة أخرى: إذا تريد الوصول إلى بيت الحاجة فاطمة، يمين في شمال وبعد ثلاث بيوت، يوجد باب حديدي

باللون الأزرق الغامق، لا تستخدم الجرس اطرق الباب بقوة لأن سمعها ضعيف..

استغرب من هذا الوصف الدقيق للعنوان، لا يوجد أرقام ولا أسماء في المخيم، لتدل أحد إلى مكان عليك أن تكون خبيراً في الاتجاهات الأربعة الأرضية على حسب يدك اليمني، إذا كنت تأكل باليد اليمني، يقال لك عند ذلك على عنوان، باتجاه يدك التي تأكل بها، وعليك حفظ أسماء عجائز المخيم لأن الوصف يكون مقترنا بهم، (المكان يكون خلف بيت الحاج أبو خالد الذي مات أبنه السنة الماضية)، لكنك تصل بسهولة إلى المكان الذي تريده، وحين تكون مهمة الوصول صعبة، عليك السؤال أين هذا العنوان؟ لكن عليك تجهيز نفسك للإجابة على عشرات الأسئلة، (ما هو اسمك، من أي بلد، أمك عايشة، أبوك ماذا يعمل، عمك رجع من السفر، جدك لمين أعطى الدار القديمة، عمتك رجعت لزوجها، خالك يبيع الخردوات في شارع بن يهودا).

يبدوا أن ملابس العامل التي سرقها موشي ساعدته في الوصول إلى بيت الحاجة فاطمة، لكن كان هناك جلجلة

عندها، الكثير من النساء يدخلن ويخرجن من البيت والدموع تنهار منها، وبعض أولاد أخواتها وأحفادهم يقفون عند باب البيت.

تقدم موشي وطرح التحية، وسأل لماذا تبكي النساء، رد أحدهم: الحاجة فاطمة مريضة جداً، كبرت الحاجة فاطمة وصبرت طويلاً على فراق زوجها وحفيدها، وخاصة منذ أن سرق قلبه ووضع في جسد أعدائنا، صار القلب يرتجف داخل موشي كأنه يريد أن يقفز وتغيرت دقاته وصارت أقوى.

وسأل الحضور: هل يمكنني أن أدخل لأراها، أبي كان معتقلاً مع الحاج صالح، ويريد أبي أن يوصل لها رسالة؟

تنحى الجميع وفتحوا الطريق له، فتقدم ببطء من المشهد خوفاً من أن يكشف أمره، دخل على الغرفة فوجدها في حالة غيبوبة، فطرح التحية (أنا جئت برسالة من زوجك صالح، أبي خرج من السجن) فتحت عينيها، وأشارت لأولادها وأحفادها والنساء اللواتي يجلسن بالقرب منها يقرأن آيات من القرآن...

اعتدلت الحاجة وجلست تنظره بنظرة تفحص غريبة، وأشارت لآخر سيدة خرجت من الغرفة أن تغلق الباب ولا تُدخل أحدا.

- قالت الحاجة: يوجد شبه كبير بينك وبين حفيدي سعد، كأنك هو، لكن سأخبرك حلما حلمت به قبل أن تأتي: جاءني زوجي صالح في المنام، وقال لي: ما تريدين؟ فأخبرته أريدك أن تعود، وأريد حفيدي سعد ليرتاح ولدي وزوجته.. إن الله يحبني كثيراً لأنك تشبه سعد وتحمل أيضا رسالة من زوجي، لي أكثر من خمس سنوات ممنوعة من زيارته..
- بصراحة أنا لا أحمل أيّ رسالة، لكن عليك أن تتعرفي علي، قد أكون شبيه سعد لكن أنا مَنْ يحمل قلب سعد، أنا الطفل الذي يحمله، لكني كبرت وصرت رجلاً، وعندي حلم كبير أن تجتمع العائلتان معاً في بيت واحد، ونفتح صفحة جديدة.
- كبرت يا سعد، وتطلب طلباً كبيراً جداً بل صعباً، لكن أنا على أبواب الموت، وإن وافقت أو رفضت لا يضر ولا ينفع رأيي الآن، لكن يمكنك أن تطرح فكرة من تبقى من العائلتين، لكن عندي طلب أخير لو مت ادفنوني في أرض جدّ شادي عند الشاهدين.

- أنا موشي وليس سعد، لكن قلبه ينبض الآن داخلي بقوة، وهو شاركني بهذه الفكرة، لكن كما تريدين، (سعد) فهو اسم جميل، سوف أذهب لماما غادة ومن ثم لبابا نصر.
- هل تعلم بأنك في آخر أيام لك في الحياة ترى الناس بشبه واحد، كل من حولي أراهم بملامح زوجي صالح وحفيدي سعد، لعل فكرتك تطفئ نار غادة أمك وأبوك الذي صار صامتاً، افتح هذا الصندوق وخذ منه قميصاً أنه القميص الذي لبسه سعد يوم الحادث.
- وقبل أن يغادر غرفتها، همس بصوتٍ منخفض جدّتي لا تفلتي قلبي.
- لن أتركك وحدك يا صغيري.

(انتبه موشي أنه لم يقل هذا الجملة، [جدّتي لا تفلتي قلبي] لكن أدرك بأن قلب سعد هو من يتكلم).

[17]

شق موشي التجمع أمام غرفة الحاجة فاطمة وهو يحمل قميص سعد، وأغلبهم سأله: ماذا أخبرتها حتى تنهض من السرير وترافقك إلى باب الغرفة، أخبرتها، أخبرتها، أخبرتها: بأن الحاج صالح سوف يخرج من السجن قريباً، وركض موشي خارج البيت، وبعد أن سُمع التهليل فرحاً بهذا الخبر.

عرف فيما مضى بأن غادة تتردد على بيت خالها نعيم حرب، وهو فنان المخيم، كان منذ صغره مولعاً بعزف العود، حيث تعلمه سماعياً دون تعليم، لكن نعيم حرب انضم لليسار واعتقل وهو صغير لسنوات، وفي السجن تقابل مع أحد عازفي العود من لاجئ مخيمات لبنان، وعلم نعيم النوتة الموسيقية، وصنعا عوداّ من الكرتون المقوى وخيطان المصيص، وصارا يعزفان عليه طوال مدة الاعتقال.

من حين إلى آخر كان يُصادَر العود من حراس السجن، فكانا يكرران صناعته، وخرج نعيم وقد رأي أشياء وتفاصيل للأحزاب داخل المعتقل لم تعجبه، فقرر ترك اليسار بكل حب واحترام، وتزوج ابنة عمه في المخيم، كوّن نعيم فرقة موسيقية للأغاني الوطنية في المناسبات، وكانت هناك موجة تحريم للموسيقى والغناء من بعض الرجال الذين قسموا العالم إلى حرام وحلال...

تفرقت فرقة نعيم وكل عازف ذهب إلى مكان، ولم يعد إلى المخيم، لكن نعيم ظل يقاوم هؤلاء الرجال بالعزف، وحول جزءا من بيته لمكان لتصنيع الآلات الموسيقية وخاصة العود والناي، وصار يعلم من يريد أن يتعلم، لكن يبدو أن الشيفرة لحب الموسيقى ورثتها غادة من خالها، فكانت مولعة بذلك، وحلمها لم يكتمل في أمريكا مع فقدان ولدها سعد، لكن شعرت بأن الموسيقى والعزف على العود والغناء تساعدها على الصبر على ما حلّ بها..

صارت تزور خالها يوميا، وقد صنع لها عوداً يناسبها، وصارت تتعلم وتعزف الأغاني البسيطة، وتأتي بكلمات موزونة ويلحنها نعيم لها، وتغنيها بصوتها المقبول.

وقبل وصول موشي للمكان، كانت غادة على غير عادتها في العزف، فقط أخطأت عشرات المرات، قال لها خالها: ماذا بك اليوم، شاردة الذهن، ولم تعزفي بالدقة التي تعودت عليك بها..

- لا أعلم لماذا طيف ولدي سعد لم يفارقني منذ الصباح؟، حتى حين دخلت لأطمئن على عمتي فاطمة، أخبرتني بأنها رأت سعد بالمنام، بصراحة أسمع صوت قلبه حولي، كل النغمات تدق مثل دقات قلبه..
- يا غادة لن أقول لك بأن سعد مات لكن يمكنك أن تركزي في العزف وتتركي الحنين، لأنك صرتِ أكثر راحة منذ بدأتِ العزف...

لم يكمل نعيم جملته، إلا ودخل شاب فجأة وبدا عليه التعب كأنه كان يركض، وقف خلف غادة، فسأله نعيم: ماذا تريد؟ لم يجبه، ظل واقفاً ويتأمل غادة من الخلف، نظرت غادة

له، وسرعان ما قفزت (سعد ولدي)، هجم نعيم ليمسك غادة قبل أن تحضن موشي، هذا ليس ولدك، أنه عابر، وولدك قد مات..

أزاحت نعيم من طريقها، وحضنت موشي بقوة، دون أن يبدي أي ردة فعل مما فعلته، سوى الابتسامة، والتحديق بنعيم، ثم تركته، وقالت: أنت لست ولدي! مَن أنت ومن أين أتيت بكل هذا الشبه بولدي؟ تلعثم في الرد: أنا موشي الذي يحمل قلب سعد.

سقطت غادة على الأرض، انطلق نعيم ليغلق الباب خوفاً من أن يسمع أحد هذا الحوار، وأحضر ماءً ورش وجهها..

- عليك المغادرة الآن، هنا الوضع خطير جداً، لو علم أحدٌ بوجودك سوف تكون في خطر، والجميع سيقع عليهم عقوبة وخيمة.
- أنا جئت لماما غادة، لأني أريدها أن تعيش معي، فأنا عندي بيت كبير.
- ماذا تقول هل جننت، أرجوك غادر المكان، حتى قبل أن تفيق غادة، ويحدث ما لا نحمد عقباه.

أفاقت غادة من الإغماء، وصارت تدقق في ملامح موشي، يبدو أن قلب ولدي قوي جداً، علمك المغامرة وحولك لملامح سعد، أنت تشبهه الآن.

- أنا جئت لك اليوم لأقول لك أريدك معي أنت وبابا نصر في مكان واحد، بالقرب من يتسهار، الحاجة فاطمة وافقت، مررت عليها قبل حضوري إلى هنا، وأعطتني قميص سعد، وأنا بعد موافقتك، أريد الذهاب لأبي نصر وأطرح عليه الفكرة.
- ردت غادة، لماذا تستخدم كلمة ماما وبابا، رغم أننا لم ننجبك أنا ونصر؟
- لا تنسي بأن داخلي قلب سعد، ماما غادة الأغنية القادمة لابد أن تعزفيها في بيتنا الجديد.

وقبل أن يخرج حمل معه عوداً قديماً والقميص، وصار يركض ناحية المدرسة التي يعمل بها السيد نصر عند طرف المخيم، المدرسة اسمها مدرسة جبل النار، وتكتظ بالطلاب وهي تابعة لوكالة غوث اللاجئين، تميزها بوابتها الزرقاء الكبيرة، والأطفال يقفون أمام الباب، يبتاعون العصافير والسكاكر والخبز والبنانير (الجلول)، وينتشر بائعو (السحبة)

البالونات، وتجد بعض الرجال يخرجون من المدرسة منهم جاء ليحل شكوى من ولده، أو ليسأل عن درجات أولاده في الامتحانات، هذه المدرسة أغلقت أكثر من مرة، فقد كان الشباب يستخدمونها للاختباء من الجنود حين يركضون خلفهم وقت رمي الحجارة، فكان ناظر المدرسة يمنع الجنود من الدخول، لأنها تابعة لوكالة الغوث، وهي مؤسسة دولية في نظره، فيأتي قرار بإغلاقها، وفتحت بعد ضغط على الحاكم العسكري في المنطقة، بعد أخذ تعهد بعدم دخول الشباب والاختباء فيها.

حاولت أن أكون طبيعياً جداً، وقد جعلت شعري أكثر تشعثاً، ودخلت من باب المدرسة، وبدون أي دليل وقفت أمام باب غرفة السيد نصر الذي يلقي درس الفيزياء، لكن الذي سمعته هو علوم عامة وكان يشرح عن في الجهاز الهضمي، ونظرّ إلى ساعته (الكاسيو)، هذه الساعات هي النوع المحبب عند أهالي المخيم، صناعة يابانية، يمكنك أن تضعها في الماء، تعمل بها في البناء، والأعمال الشاقة، لا تشحنها تظل بطاريتها لعشرات السنوات، يوجد بها ثلاثة برامج الساعة الحالية، عداد وقت، والتاريخ واليوم، وعن طريق ضغط زر

في إطارها يمكنها أن تغير البرنامج، فقط عليك تغيير حزامها الجلدي، يأتي منها في الأسواق حزام جلد أسود تشتريه الطبقة العادية في المجتمع، والحزام الفضي تشتريه الطبقة الغنية...

وبعد أن نظرّ إلى الوقت في الساعة شعر أن جرس انتهاء الحصة قد تأخر، أو لم يسمعه، جرس المدرسة عبارة عن قمع من حديد ينقره ناظر المدرسة بحديدة تصدر صوتاً كالجرس، انتبهت وقتها أني أقف بباب الصف، اندهش، لكن الناظر قرع الجرس، فنهض الطلاب بشكل عشوائي يتسابقون للخروج من الباب، فلم يبقى لي إلا أن أهرب من هذا التسونامي البشري بالأزياء الزرقاء.
ظلّ السيد نصر معلقاً نظره ناحيتي، لكن فقدَ تركيزه، حين هزه أحد الطلاب وسأله عن الدرس القادم، فرد: عن جهاز القلب في جسم الإنسان.

هي ثواني قليلة ويختفي الطلاب من الصف ولا أحد يتأخر حتى ينتشروا في ساحة المدرسة، إلى البوابة الكبيرة الزرقاء،

ومن ثم تصبح المدرسة فارغة كغابة شاسعة لا تجد فيها أحد، إلا بعض الطلاب الذين فقدوا شيئا كدفتر أو كتاب أو حذاء بعد حصة الألعاب الرياضية، يقف بعض الطلاب بباب غرفة الناظر ينتظرون عقابهم، تقدم السيد نصر ناحيتي، ملامحه غير مفهومة هل هو سعيد أم حزين، رفعت في وجهه العود وقميص سعد، جلس على أول مقعد خشبي في الفصل، ووضع رأسه بين يديه، تجرأت وبدأت الحديث.

- لماذا تدرسهم علوم عامة ولا تدرس الفيزياء؟
- ابتسم: لا يوجد تخصص خاص للفيزياء عندنا في المدارس إلا في الثانوية العامة، رغم أني قلت للتعليم العالي بأننا بالفيزياء نتطور ونحكم العالم!
- أريد أن أسألك: كأنك تعرفني أو رأيتني قبل هذه اللحظة.
- رد: وجهك يا موشي لم يغادرني أبدا!
- تعجب موشي: رغم مرور أكثر من خمس سنوات.
- هز رأسه: لم أنسّ ملامحك منذ أن رأيتك بالمشفى وقت الاحتفال، في المخيم الذي يدرس تخصص علمي يمتاز بالذكاء، لا تنسى أني فيزيائي لا أنسى أي قانون قد درسته، وأنت كنت قانون في حياتنا ولابد أن أحفظك، من أين

حصلت على قميص سعد والعود الأول الذي تدربت عليه زوجتي غادة منذ عودتنا من أميركا؟ يبدو أنك زرت أمي فاطمة وزوجتي، وهناك شيء كبير تريد أن تطرحه علي، لكنك جلبت العود والقميص لتؤكد ليّ موافقة أمي وزوجتي على الأمر.

- رغم أنك فيزيائي وأيضا تتنبأ لماذا جئت إليك؟ جئت لأقول أني أريد أن تعيش العائلتان معاً، ويكفي حزناً، أنا لا أجد عائلتي (ديفيد) ولا عائلتك يا سيد نصر.
- الذي تطرحه شيء من الخيال بل من عجائب الدنيا، هناك فجوة كبيرة بيننا، في الدين والتعامل والطقوس والملابس والطعام واللغة وحتى بالحب، وقد أقدم كباركم على سلب أرضنا.
- لماذا لا نحاول ونحطم كل هذه الصخور، وإن لم نقدر على تحطيمها نحركها من طريقنا.

(لم يرد السيد نصر، وأشار لموشي بعدم الكلام لأن لغته العربية مكسرة، خاف أن ينكشف أمره، لأن أحد المدرسين ذا الوجه العبوس (حسن)، يتقدم ناحيتهما، فهو من الرجال الذين منعوا الموسيقى في المخيم).

- أستاذ نصر لِمَ تأخرت عن الحضور لغرفة المدرسين، من هذا الولد ذو العيون الزرقاء والشعر الأشقر، أنا لم أره من قبل هنا؟
- لا عليك أنه يريد العمل عندنا في محل بيع حلويات النابلسية، ويريد أن أساعده في الأمر.
- لماذا سكت عن الكلام حين شاهدني؟
- هو ينطق الحروف بصعوبة عنده مشكلة في لسانه.
- حين تنتهي من أمره ننتظرك، لدينا اليوم زيارة لبيت عزاء الشهيد الذي قتله أحد حراس يتسهار.
- سوف ألحق بك.

(الرجاء أخرج من هنا بسرعة فقد شك في أمرك، إنه يشك في الهواء الطائر، أخرج من باب المدرسة بسرعة ولا تجعله يراك، لو اكتشف أنك إسرائيلي، فسوف يقتلك، صار قلبه وجسده يرتجفان من كلمة القتل، فركض بسرعة إلى باب المدرسة، لكن المدرس حسن، كان يقف عند باب المدرسة لأمر ما، فلاحظه يركض بسرعة، فحاول أن يمسك به، لكن أفلت منه، والتفت حسن ناحية نصر وقال: عيون زرقاء وشعر أشقر ولا يتكلم أنه يشبه من يسكنون يتسهار، تظاهر

السيد نصر أنه لم يسمعه، ودخل غرفة المدرسين، لم يأخذ موشي موافقته بفكرة أن يجتمعوا في بيت واحد، لكنه أفلت من المعلم حسن ووجهه العبوس).

[18]

عاد موشي ليتسهار، وأعاد ملابس العامل، وجلس عند مزرعة طيور الحبش، وبدأ الليل يهبط، وظهرت طيور الحبش كأنها أكوام من قطن على الأرض، ينتظر عودة أبيه من العمل ليتحدث معه بخصوص البيت الكبير، تذكر أن ساعة تبقت لحضوره، فأشار لنفسه أن يذهب لجدته وجده ومن ثم لأمه.

فجدته وجده، اختارا بيتاً قديماً كان قبل بناء يتسهار وحوله معبد صغير، موجود منذ زمن الرومان في المنطقة، يقال إنه كان من بيوت الملكة هيلانة، وقد وضعت إحدى بناتها فيه كسجن لأنها كانت مدمنة على الكحول والرجال وخرجت على أمها وأخيها قسطنطين ولم تؤمن بالمسيح، كان هو البيت الوحيد، جدرانه قوية وعالية وشبابيكه ملونة، فصارا يقضيان كل وقتهما فيه.

فتح الباب عليهما وتقدم ناحيتهما، كانت الشموع مضاءه في كل مكان، وأغلب الجيران يأتون بخبز ناشف وبعض الفواكه، وقتها كان جائعاً ومد يده على قطعة خبز وتفاحة حمراء، فجاءت جدته وضربته على يده: لا تأكل شيئا، نحن اليوم صيام، وباقي دقائق ونأكل، يا موشي أنت تغيب عنا كثيراً، لو ترددت على المعبد لعرفت أن اليوم هو أهم أيام الصيام بالنسبة لليهود هو "يوم الغفران" يصومون فيه 25 ساعة مع الكثير من الصلوات، كل الرجال يرتدون وشاحًا أبيض، والنساء ملابس بيضاء، لكن يبدو أنك يا حفيدي جائع، لا عليك يمكنك أن تأخذ ما تشاء وتذهب خلف المعبد وتأكل..

- يا جدتي أريدك أنت وجدي في شيء جديد، بعيدا عن المعبد، أنا عملت بيتاً كبيراً فيه كل ما يناسب الحياة، لكن سوف نعيش معاً نحن وعائلة السيد نصر أصحاب القلب الذي ينبض داخلي
- قفزتْ عليه ووضعتْ يدها على فمه، لا تُكمل حديثك، أنت مجنون، لا أريد جدّك أن يسمع ذلك، وإلا لعنتك جدران المعبد... أرجوك أخرج من هنا، ولا تعود.

- لن أخرج حتى أعرف ما هو رأيك، وأريدك أن توافقي على ذلك وتقنعي جدّي بذلك، ومن ثم أبي وأمي والصغيرة سارة.

(لاحظ الجدّ بعض التوتر على وجه زوجته، وعلى وجه حفيده موشي، وسأل ما يوجد هنا، يبدو أن الأمر كبير، لأنهما متوتران).

- لا يا عزيزي، ليس هناك شيء كبير يستدعي القلق من ناحيتك.
- يا عزيزتي اليهودي المخلص لا يكذب على اليهودي، يكذب خارج المعبد، أنت تكذبين الآن ونحن في يوم الغفران.
- سردت الجدّة ماذا يريد موشي من طلب غريب.
- ضحك الجدَ بصوت عالٍ، وقال لموشي: أنت الآن تفكر بما تفكر به دولة إسرائيل لعشر سنوات قادمة، ألم تتذكر أن قالوا لك: أنهم يحضرونك لشيء كبير بعد أن نقل لك قلب العربي، أنت الآن بدأت تنفذ ما خططوه لك.

(دهش موشي مما سمع، فقد كانت فكرته مجرد فكرة لمن خطط له بعد عملية القلب).

هرب من المعبد، وعند الباب اصطدم برجلين كانا في المشفى وقت العملية يتحدثان مع ديفيد وسارة، فوقع تحت

أقدامهما، مد أحدهما يده له قائلاً: نحن من نساعدك وقت السقوط، أنت تنفذ ما خططنا له، طبعاً نشكرك على كل ما فعلته لدولتنا، إن إقناع الآخرين بوجودنا على هذه الأرض ما كان ينقصنا، وسيكتمل حلمنا، لو صرنا جيران بمعنى الكلمة.

[19]

(الهروب من المعبد) في لحظات تشعر أنك رجل آلي مبرمج لخدمة شيء أكبر منك، بيده آلة لحام حديد، ويثبتك كيفما يشاء، يجعل رأسك كبيرا، أو أنفك طويلا، تكون قصير القامة أو طويل، يشكلك كما يرغب لخدمته، وصار عندي شك أكبر من غابات الأمازون أن نقل قلب سعد داخلي ليس مصادفة، بل هناك شيء مدبر، كل هذا التجهيز، لتزيد مساحة الجغرافيا لغيرك، أو تكتب صفحة تاريخ لأحد يتلو عليك تفاصيلها، شيء مقزز أن تنفذ ما يخططون دون الرجوع لك بالموافقة أو الرفض.

إيقاع الحياة المتسارع هنا في هذه المنطقة لإثبات الحق بالبقاء لمن، يجعل كثيراً من الناس في حالة عجز عن

الخروج من دوامة اجترار الأفكار السلبية والخوف من القادم، دون إدراك لتأثير على الأجيال القادمة.

أنا بجسدي هذا أشعر بفشل في اختيار حياتي كما أريدها ناقصة أو زائدة، وحتى حين زُرِع القلب داخلي كل الذي تعلمته أن تقف على ضفة النهر من الحنين والعاطفة ولا تستطيع أن تشرب منه لو كأساً واحداً.

يبدو أننا في المنطقة كل منا يخطط، عائلة ديفيد تخطط، وعائلة نصر تخطط، كلاهما يسيران في خطين متوازيين، أو يقفان على كفى الميزان، مرة ترجح كفة غادة ومرة كفة سارة..

الآن عليّ الذهاب إلى عائلة السيد نصر، لأخبرهم بأن دعوتي لهم للعيش في بيت واحد ونجمع الجسد والقلب، لم تكن فكرتي بل كانت فكرة العالم الخفي الذي يحكم المنطقة، سوف أسرق الملابس مرة أخرى وأركض للمخيم.

حين اقترب من غرفة العمال، كان بانتظاره أبوه وأمه وصغيرتهم، ارتبك وقتها وحاول أن يُظهر أنه جاء مصادفةً.

- لكن ديفيد هز رأسه: مرحبا يا موشي، لم أرك منذ فترة، كيف كانت رحلتك إلى المخيم، أعلم أنك شعرت بالرعب والخوف، ورأيت عالماً يختلف عنا، وعن عادتنا..
- كيف عرفت أني ذهبت لهناك، رغم أني كنت متخفياً، ولم أقل لأحد، من أخبرك.
- لا تنسى أننا محاطون بكاميرات المراقبة.
- تحدثت سارة: يا موشي يا ولدي، كل الذي تفكر فيه صعب، وأنت غائب عنا كثيراً، كان عليك أن تقضي الوقت معنا أفضل من هلوساتك.
- أنا الذي فهمته أني مجهز لهذه التجربة.
- كان عليك أن تقاوم ما يريدونه، لكنك لحقت ضعف قلبك، وتحكمه بك فأخذك إلى ما يريد. (ديفيد)
- أي شيء مخطط وقعت في فخه، لك عليّ اللحاق بعائلة السيد نصر، لأنهم تهيأوا للعيش معنا.

[انصرف السيد ديفيد وسارة، وتركا صغيرتهم معه، نظر إليها وقال: وأنت يا صغيرة، لو تعلمي كم سنعاني من العيش هنا، لرفضت أن تكبري، حملها وصار يدور بها في الهواء، وهي تضحك بصوت عالٍ]

غيّر ملابسه، ولبس ملابس المخيم وركض باتجاهه، حتى وصل إلى بيت الحاجة فاطمة، فشاهد العشرات من الرجال ينصبون بيت عزاء ويرصون الكراسي البلاستيك داخله، دخل البيت بعد معاناة من الزحمة التي تحيط الباب، وجد السيد نصر يبكي، اقترب منه هامساً: هل ماتت الحاجة فاطمة، فبكى نصر وحضن موشي: لقد أوصت أن تدفن في أرض جدّ شادي، ويكتب على قبرها (جدّتي لا تفلتي قلبي)، بكى موشي حتى نزلت دموعه على سترة السيد نصر، فأخبره أن فكرة البيت الكبير فشلت ولم يقدر عليها.

خرج مجموعة من الرجال يحملون نعشها مغطى ببطانية بيضاء، وصار الجميع يتهافت بالسلام والمصافحة والعناق للسيد نصر وموشي واقف بالقرب منه، والكل كان يقول، عاشت الحاجة فاطمة صابرة على اعتقال زوجها الحاج صالح، وموت حفيدها، وتحرك الجميع حتى وصلوا إلى أرض جدّ شادي، وحفروا حفرة بالقرب من الشاهدين (سعد) و(جدّ شادي).

وقف نصر في لحظات الدفن عند حافة القبر يبكي، كان يحمل بيده يافطة من الخشب مكتوب عليها (جدتي لا تفلتي قلبي) وغرسها عند مقدمة القبر.

اقترب موشي منه، وربت على كتفه، لكن المعلم حسن كان يحملق في موشي كثيرا، وحين يختفي بين الجمع تجده يقف أمام موشي، كأنه يريد أن يسأله شيئاً، فخاف موشي أن ينكشف أمره بأنه غريب عنهم، وأن عائلته هي من أخذت قلب سعد، فتسلل من بين الجمع وخرج من الزحمة إلى الشارع، وصار يركض، انتبه أن ثلاثة ملثمين يركضون خلفه، ومعهم الأستاذ حسن، فركض بسرعة كبيرة، حتى توارى بين الشوارع حتى وصل إلى يتسهار.

صار موشي يتردد على المخيم لثلاثة أيام في النهار، مدة عزاء الحاجة فاطمة، وزار غادة وتحدث معها، لكنه كان خائفاً من أن يراه الأستاذ حسن، لأن السيد نصر قال له: أنه كشف أمرك وقد يفعل شيء لا تحمد عقباه، فعليك الحذر

حين تحضر إلى المخيم، أو تمتنع تماماً، وتنسى أمرنا، وعش حياتك.

تمر الأيام دون طعم ولا رائحة ولا شغف، والكل محملق رأسه في السماء الزرقاء، عليك في النهار سماع صوت أهالي المخيم وهم يرمون الحجارة على الجنود ويشعلون إطارات السيارات، وصوت سيارة الإسعاف تتجول في المكان، ورائحة قنابل الغار في كل بيت، وفي الليل عليك أن تتوقع أن يجتاح الجنود المخيم لاعتقال من يرمى الحجارة ويشعل الإطارات، ليزداد عدد المعتقلين، هذه المشاهدة تتكرر يومياً بل في كل لحظة، كالمد والجزر في البحر...

وفي ليل يوم غريب، جاءت سيارات خضراء غامضة مدججة بالسلاح والجنود، وسيارات مدنية بيضاء، ودخلت المخيم، بدون أي مقاومة، وصلت إلى بيت السيد نصر، وطرقوا الباب بعنف..

نهض من فراشه ونهضت زوجته وصغارها، وبدأ الخوف يعربد في الجو مع العتمة، وصوت موجات التشويش

اللاسلكي (جهاز الاتصال) انتشرت في سماء المخيم، معظم الجيران أطفأ الضوء، وصاروا يطلّون من فتحات الشبابيك الخشبية بكل حذر دون إصدار أي صوت يدل عليهم.

فتح الباب فوجد عشرات الجنود، رفعوا البنادق في وجهه، ودخلوا وفتشوا كل متر في البيت، ولم يتركوا حتى أواني المطبخ، وداروا خلف البيت، وأفرغوا الخزنات وصعدوا على سطح البيت.

سألهم: عم تفتشون، لم يرد أحد على سؤاله، وبعد نصف ساعة من التفتيش الدقيق، تقدم أحد الجنود يحكي بالعربية وعرف نفسه أنه: الضابط دانيال، وطلب من السيد نصر أن يحضر معهم هو وزوجته بدون مقاومة لأن هناك أمر أمني كبير حدث في يتسهار وهو متهم مع زوجته بهذا الأمر.

لم يبدِ أي رفض، أخبر زوجته، وركبا سيارة الجنود، وبعد أن غادروا انطلقت نساء المخيم، لترعى الصغار من خلفهم.

وقبل أن يصلوا بوابة مقر الجيش، ترجل الجنود وأنزلوا، نصر وزوجته، أمام سيارة مدنية، فيها السيد ديفيد وسارة، وقد بدا الغضب على وجهيهما.

- من خلف مقعد السيارة سأل ديفيد: سيد نصر أين موشي، له أكثر من أسبوع لم يعد للبيت، ونحن نحملك أنت وزوجتك سبب اختفائه.
- ارتبك السيد نصر من الخبر، خوفاً م أن يكون أحد قد أمسك به عند أطراف المخيم، ورد: أنا أيضا لم أره منذ أسبوع.
- نزلت سارة ومشيت باتجاه غادة تلوح بيدها: أين موشي يا غادة، على حسب أخر الأخبار أنه كان معك في بيت خالك تعزفين له على العود.

كانوا الجنود يلفون غادة والسيد نصر، فخافا جدا من هذا المشهد المرعب، ردت غادة: كان عندي وغادر ولم أره منذ ذلك الوقت...

انهال الجنود بالضرب على السيد نصر وزوجته بالعصوات وأعقاب البنادق، فصارت غادة تصرخ من الوجع، حاول نصر تلقي بعض الضربات عنها.

أشار ديفيد للجنود بالتوقف، فصرخت سارة بوجه الجنود لماذا فعلتم ذلك، لا نريد إيذاء أحد..

- صرخ نصر: أنتم تتحركون بكل راحة في المنطقة ولا أحد يمنعكم، وموشي جزء منكم، يمكن أن يكون قد ذهب إلى مكان لا أحد يعرفه، لو أردتم أن تروا بشكل واضح لا تمسحوا زجاج نظاراتكم فقط عليكم فتح عيونكم أكثر.
- أتقصد بهذا الكلام أنه هرب منا، يا للعجب!
- سارة قالت: اعتذرت عن سوء الفهم للسيدة غادة، ورجتها لو تعرف شيء تخبرهم قبل ضياع الوقت، ويحدث شيء لموشي.
- وجه ديفيد الحديث لزوجته، هيا أنا علمت أين هو، لكن أعلم يا سيد نصر أنت وزوجتك حين أجده لن ترياه أبدا، سوف نهرب منكم مرة أخرى، لكن هذه المرة لن تصلوا إلينا.

تحركت السيارات والجنود، تركوا نصر وزوجته في منتصف الطريق، فأمسك بيدها وصارا يمشيان ناحية البيت، فتوقف فجأة وقال لها: هل تعلمين أين موشي، أين قلب سعد الآن.. تعجبت غادة من معرفته مكانه، أنه في أرض جدّ شادي،

لكن علينا التحرك بسرعة للأرض قبل أن يصلوا إليه ويأخذوه إلى عالم بعيد.

فجأة ظهر بعض الشباب ومعهم المعلم حسن، دهش نصر مما يرى، وقبل أن يتحدث، قال حسن بصوت به خشونة: موشي هو الإسرائيلي الذي سرق قلب سعد، وأمك ماتت بسببه، أين أرض جدّ شاي، لنقتله، أو نخطفه...

لم يرد عليه السيد نصر وأمسك يد غادة وصارا يركضان.

في المقابل قبل أن يصل ديفيد وسارة إلى بيتهما، خرج عليهما بعض الرجال بلباس أسود وقبعات سوداء طويلة، وذقون غريبة.

- هل عرفتم أين موشي، موشي أصبح غير مفيد لنا، خسرنا الكثير عليه من الوقت والمال والجهد والتعليم خلال السنوات الماضية، لكن القلب الذي ينبض به أفسده، عليكم وعلينا التخلص منه، وهذا حكم مطلق لا يمكننا التراجع عنه... هو الآن موجود بالأرض المجاورة لحدود يتسهار.

حين سمعت سارة بهذا الكلام، صرخت ولدي موشي بصوت هزّ المكان، وأمسكت بيد ديفيد وصارت تركض ناحية أرض جدّ شادي، لتحمي ولدها من الموت.

قبل الوصول إلى الأرض بحوالي عشرة أمتار، التقى كل من السيد نصر وزوجته بالسيد ديفيد وزوجته عند نقطة واحدة، وكل منهم صار يركض بقوة يريد أن يصل قبل الآخر، وخلفهم من جهة ديفيد الرجال ذوو الملابس السوداء والقبعات، وبعض الحراسة بالملابس المدنية، خلف السيد نصر من ناحية اليمين المعلم حسن وعشرات الشباب، وفي آخر المشهد من بعيد يمشي بهمة كل من جدّ وجدة موشي بمساعدة عكازيهما.

بعد الركض دخل الجميع ووقفوا وسط الأرض أمام الشواهد الثلاثة، وانقسموا إلى فريقين.

حكى السيد نصر بصوت مسموع: هذه الأرض لنا، لماذا أنتم هنا، عليكم الخروج الآن، وإلا سيحدث ما لا يحمد عقباه، الجميع هنا غاضب.

رد ديفيد: نريد أن نأخذ موشي ونرحل دون مشاكل.

حكي حسن بصوت خشن أرعب الجميع: تريدون ولدكم، ونحن نريد قلب سعد، وإلا لن يخرج أحد من هنا بسلام... وأخرج من جيبه مسدساً ولوح به.
في هذا الوقت أخرج الحراس أسلحتهم وصوبوها ناحية حسن، قفز ديفيد على الحراس وقفز نصر على حسن، ولولا تدخلهما لصار هنا إطلاق للنار.
صرخت غادة بصوت عالٍ: يا سعد أخرج أين أنت
ساعدتها سارة أيضا: أخرج يا موشي!
تفرق الجميع ليبحث عنه، في كل جزء في الأرض، لكنه لم يظهر، ولم يجدوا أي أثر له هنا، لاحظ نصر أن هناك قبرا جديدا بالقرب من قبر أمه فاطمة، فصار جسده يرتعش، وظن أن مكروها حدث لموشي.
تجمعوا حول القبر الجديد، وصارت غادة وسارة تلطمان على الخدود.
وانسحب الحراس والأستاذ حسن والشبان، وحتى الرجال ذوو البدلات السوداء، وتركوا العائلتين تقفان حول القبر وبسط الصمت جناحيه والعتمة خيمت وكانت أكثر سواداً، والبرد يتسلل لأجسادهم وحولهم إلى أعمدة إنارة معطلة.